شعر الحكمة
عند أبـي الأسود الدؤلـي
موضوعاته وخصائصه الفنية

دكتور

علي عبداللطيف عبدالرحمن سليم

مدرس الأدب والنقد في كلية اللغة العربية

جامعة الأزهر بالزقازيق

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله أحكم الحاكمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين.

أما بعد

فإن الحكمة نعمة عظيمة، ومنَّة جليلة، يهبها الله لمن يشاء من عباده الطائعين، فيرتفعون بها منزلة، ويسمون بها مكانة وقدرا، قال تعالى)يُؤتِي الحكمة مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الحكمةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ) (١)

والحكمة هي خلاصة التجارب الإنسانية العميقة، التي يطلقها صاحبها في كلام موجز بليغ، ليعبر عن حقيقة يوجهها إلى الأجيال الصاعدة .

وأدبنا العربي "شعره ونثره "مليء بالحكم التي ظلت ماثلة في وجدان الأمة عبر العصور المختلفة، ينهلون من معينها، ويرتشفون من رحيقها.

ولما كان الشعر هو فن العربية الأول فإن الشعراء الأوائل كانوا حريصين على أن يودعوا في أشعارهم خلاصة تجاربهم، ويقدموها للأجيال القادمة ليفيدوا منها في حياتهم.

والمتأمل في نتاج شعرائنا الأوائل يجد أنه لا يخلو من شعر الحكمة، بل إن هناك كثيرا من الشعراء اشتهروا بها، من أمثال زهير بن أبي سلمى،وأبي تمام، والمتنبي ..وغيرهم كثير.

ولقد شغلني هذا الموضوع فيمَّمت وجهي شطر شخصية شعرية لم يُعرف بها شاعرًا بقدر ما عرف لغويا ونحويا،غلب شعر الحكمة على نتاجه، وهو أبو الأسود الدؤلي، الذي ترك ديوانا جمعه أبوسعيد الحسن السكري المتوفى 290هـ، وحققه الشيخ محمد حسن آل ياسين،ولم أعثر في المكتبة العربية على من تصدى لنتاجه الشعري بالبحث والدراسة ، فعكفت على قراءة هذا الديوان، فوجدته يكشف عن شاعر إسلامي أصيل، يمثل فصاحة

---

(١) البقرة /٢٦٩ .

اللغة في أعلى مراتبها، ويمثل العصر الإسلامي خير تمثيل، لغة سليمة، لم يشبها معرب أو دخيل، وتراكيب فصيحة صالحة للاستشهاد بها في كتب اللغة والنحو.

وإذا كان شعر أبي الأسود على هذه الدرجة من القيمة الفنية فإني جعلت هذا البحث "شعر الحكمة عند أبي الأسود الدؤلي ...موضوعاته وخصائصه الفنية "ليكشف عن الشخصية الأدبية لأبي الأسود التي لم يعرفها كثير من محبي اللغة ودارسي الأدب.

وقد بنيت بحثي هذا على مقدمة، وتمهيد، وفصلين، وخاتمة.

فالمقدمة: بينت فيها أهمية الموضوع وخطته.

والتمهيد: تناولت فيه الحديث عن معنى الحكمة، والتعريف بأبي الأسود، وصفاته، ومنابع حكمته.

والفصل الأول: بعنوان)**:موضوعات شعر الحكمة عند أبي الأسود** (وجاء في خمسة مباحث:

أولاً : النصح والإرشاد

ثانيًا : الحث على السعي وطلب الرزق

ثالثًا : فضل العلم

رابعًا : الحديث عن الظلم

خامسًا : الدعوة إلى حسن الخلق

والفصل الثاني: بعنوان) :**الخصائص الفنية لشعر الحكمة عند أبي الأسود الدؤلي** (وجاء في ثلاثة مباحث:

أولاً : الألفاظ والأساليب.

ثانيًا : الصورة الشعرية.

ثالثًا : الموسيقى الشعرية.

الخاتمة: وقد أودعتها أهم النتائج التي توصل البحث إليها ، ثم أتبعتها بقائمة المصادر والمراجع.

والله أسأل أن ينفع به، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

د 0علي عبداللطيف عبدالرحمن سليم

تمهيد
روافد الحكمة عند "أبي الأسود الدؤلي"

١ معنى الحكمة :

تدور مادة "حَكَمَ "في معاجم اللغة حول معنى عام هو :الإدراك العقلي،والتقييم المحكم على الأشياء برؤية عادلة، وعبارة موجزة بليغة.

ففي لسان العرب "الله سبحانه وتعالى أحكم الحاكمين، وهو الحكيم له الحكم ،سبحانه وتعالى.قال الليث :الحكم الله تعالى .الأزهري :من صفات الله الحكم والحكيم والحاكم،ومعاني هذه الأسماء متقاربة،والله أعلم بما أراد بها،وعلينا الإيمان بأنها من أسمائه(١) وفي القاموس المحيط ":والحِكْمَةُ، بالكسر العدل، والعلم،والحِلْمُ،والنبوة،والقرآن،والإنجيل.(٢)

يقول ابن الأثير":في أسماء الله تعالى الحكم والحكيم،وهما بمعنى الحاكم،وهو القاضي،فهو فعيلٌ،بمعنى فاعل، أو هو الذي يُحْكِمُ الأشياء ويتقنها،فهو فعيلُ بمعنى مُفْعِل،وقيل الحكيم ذو الحكمة،والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم.ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها حكيم(٣)

ولقد وردت كلمة"الحكمة"في القرآن الكريم بهذا المفهوم كثيرا،منها قوله تعالى :رَبَّنَا وابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الحكمةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ (٤) وقوله تعالى) :يُؤتِيَ الحكمة مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الحكمةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ (٥) وقوله تعالى :وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الحكمة أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦)

ووردت كلمة الحكمة –أيضا –في أحاديث نبوية كثيرة منها:ما أخرجه البخاري من حديث أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم)إن

---

(١) لسان العرب لابن منظور ج٣ ص ٩٥١ دار المعارف .
(٢) القاموس المحيط للفيروز آبادى ص ١٠٩٥ ، ط السادسة ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م ، مؤسسة الرسالة للطباعة .
(٣) النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ، ص ٣٧٩، الطبعة الأولى ، المكتبة العصرية .
(٤) البقرة / ١٢٩٥
(٥) البقرة / ٢٦٩٦
(٦) لقمان / ١٢٧ .

من الشعر حكمة [١]

أي إن في الشعر كلاما مفيدا نافعا،يمنع الإنسان من الجهل والطيش،وينهى عن كل ما هو قبيح.

وعن ابن عباس –رضي الله عنهما -قال) :ضمني النبي صلى الله عليه وسلم إلى صدره وقال :اللهم علمه الحكمة[٢]

مما سبق يتضح لنا أن الحكمة –كما أشرت سابقا –هي:معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم،وهي توخي القصد والاعتدال، وإدراك العلل والغايات، ووضع الأمور في نصابها الصحيح،ومكانها المناسب في تبصر وروية وإدراك.

ب -التعريف بأبي الأسود الدؤلي :

اسمه:

ظالم بن عمرو بن جندل بن سفيان، من كنانة، وهو يعد في الشعراء،والتابعين،والمحدثين،والبخلاء،والمفاليج،والنحويين،لأنه أول من عمل في النحو كتابا.

شهد مع علي بن أبي طالب صفين،وولي البصرة لابن عباس،ومات بها[٣]

مولده:

أورد خيرالدين الزر كلي في كتابه "الأعلام "أن أبا الأسود ولد قبل الهجرة بعام واحد، وعاش سبعين سنة، وكان معدودا من الفقهاء، والشعراء، وترك من الشعر الجيد ديوانا صغيرا[٤]

آثاره العلمية:

---

(١) صحيح البخارى ج ٥ ، ص ٢٢٧٦ ، تحقيق / مصطفى ديب البغا ، دار ابن كثير اليمامة ،بيروت

(٢) المرجع السابق ج ٣ ص ١٣٧١.

(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ج٢ ص ٧٢٩ ـ تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ، الطبعة الثانية ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م.

(٤) الأعلام لخير الدين الزركلى ، ج٣ ص ٢٣٦/ ٢٣٧ – الطبعة الخامسة عشرة ، ٢٠٠٢م ، دار العلم للملايين ، بيروت ،

كان أبو الأسود الدؤلي من أبرز علماء عصره ، فقد قام بجهود كبيرة في خدمة لغة القرآن الكريم ، منها :

أولاً: قيامه بوضع علم النحو، عندما سمع اللحن في قراءة القرآن الكريم، يقول ابن سلام الجمحي":وكان لأهل البصرة في العربية قدمة ،وبالنحو ولغات العرب والغريب عناية ،وكان أول من أسس العربية ، وفتح بابها ، وأنهج سبيلها ،ووضع قياسها ، أبو الأسود الدؤلي حين اضطرب كلام العرب [١]

ثانيًا: قيامه بتشكيل القرآن الكريم، وتنقيطه ، يقول أبو علي القالي :حدثنا أبو إسحاق الزجاج، حدثنا أبو العباس المبرد قال :أول من وضع العربية،ونقط المصاحف أبو الأسود الدؤلي[٢]

ثالثًا: ترك مجموعة من القصائد والمقطوعات مبثوثة في بطون الكتب، جمعت في ديوان، قام بتحقيقه وتنسيقه الأستاذان محمد حسن ياسين وعبدالكريم الدجيلي .

رابعًا: مشاركته علماء عصره في الرواية ،فروى عن جمع غفير من الصحابة ، منهم :عمر، وعلي،ومعاذ، وأبوذر،وابن مسعود،والزبير،وأبي بن كعب،وغيرهم كثير[٣]

هذه أهم آثار أبي الأسود وجهوده العلمية، التي جعلته من أبرز علماء عصره، الذين كان لهم قصب السبق في خدمة لغة القرآن الكريم ، اللغة العربية الخالدة .

صفاته من خلال شعره:

أدب الأديب صورة من ذاته ، وتعبير عن شخصيته ،ودليل على مقومات هذه الشخصية ، يقول العقاد ":إن الشعر تعبير، وإن الشاعر الذي لا

---

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى ، ج١ ص ١٢ ، تحقيق محمود شاكر ، الناشر دار المدنى بجدة .

(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى ، ج٣ ص ٣٠٤ ، تحقيق ابن حسن الفيومى – دار الكتب العلمية – المطبعة الشرقية – القاهرة ١٣٢٧هـ .

(٣) المرجع السابق ، ج٣ ص ٣٠٤ .

يعبر عن نفسه صانع، وليس بذي سليقة إنسانية،فإذا قرأت ديوان شاعر،ولم تعرفه منه،ولم تتمثل لك شخصية صادقة لصاحبه فهو إلى التنسيق أقرب منه إلى التعبير[١]

لذا وجدت نفسي مدفوعًا للتعرف على شخصية أبي الأسود الدؤلي،فعكفت على شعره بعد أن استوقفني حديث ابن قتيبة عن صفات أبي الأسود ، حينما وصفه بالبخل، وأدخله في زمرة البخلاء، فأردت أن أتحقق من ذلك من خلال العكوف على ديوانه، واستخلاص صفاته من شعره.

ولعل الذي حدا بابن قتيبة إلى وصف أبي الأسود بالبخل ما ورد عنه "كان يقول لولده لا تجاودوا الله؛ فإنه أجود وأنجد، ولو شاء الله أن يوسع على الناس كلهم حتى لا يكون هناك محتاج لفعل[٢]

وفي الحقيقة –وبعد معايشتي لشعر أبي الأسود –وجدته يتصف بصفات كثيرة،من أهمها:

– 1الكرم :

- وذلك خلافا لما وصفه به ابن قتيبة -فقد كان لأبي الأسود جار يحسده ، وتبلغه عنه قوارص ، فلما انتقل أبو الأسود إلى هذيل ، وباع داره في بني الدئل، قال جار أبي الأسود لبعض جيرانه

من هذيل :هل يسقيكم أبو الأسود من لبن لقاحه؟ وكانت لا تزال عنده لقْحَةٌ[٣]أو اثنتنان،وكان جاره ذاك يصيب من الشراب، فلما بلغ أبا الأسود ذلك قال :

إنَّ امـرأ نُبِّئْتـه من صديقنـا * يُسـائِلُ هل أسقي من اللبن الجـارا ؟
وإنـي لأسقـي الجار في قعر بيته * وبيتـيَ مـالا إثم فيـه ولا عـارا
شرابًـا حلالًا يتركُ المرءَ صاحيـًا * ولا يتولّى يقلِصُ [٤]الخمرَ والقارا [٥]

فهذه الأبيات تكشف عن نفس كريمة، وشخصية معطاءة ، تقدم الطعام

---

(١) معراج الشعر ، مقال للأستاذ العقاد ، بمجلة الكتاب ، اكتوبر ١٩٤٨ ، نقلاً عن : فى الأدب الحديث لعمر الدسوقى ، ج٢ ص ٢٥٠ – الطبعة الثالثة – دار الفكر العربى – مطبعة الرسالة .

(٢) الشعر والشعراء ، لابن قتيبه ، ج٢ ، ص ٧٢٩ .

(٣) اللقحة : الناقة الحلوب الغزيرة اللبن .

(٤) فصلت نفسه : غثت .

(٥) ديوان أبى الأسود الدؤلى ، صنعه أبى سعيد الحسن السكرى ، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين ص ٦٧ ، الطبعة الثانية المنقحة والمصححة ١٤١٨هـ / منشورات دار مكتبة الهلال .

للجيران، وهذا من مظاهر الكرم والجود .
وأيضا مما يدل على كرم أبي الأسود أنه كان له لقحة يقال لها الطيفاء،وكان يقول :ما ملكت مالا قط أحب إليَّ منها ، فأتاه رجل من بني سدوس يقال له "أوس بن عامر "فجعل يماكر أبا الأسود، ويعيبها، فألفاه بها بصيرا، وفيها منافسا، فبذل له فيها ثمنا وافيا،فأبى أن يبيعه، وقال فيه :

أتانـيَ فـي الطيفاءِ أوسُ بن عامرٍ * ليخدَعنـي عنـها بجِـنٍّ ضراسـها
فسـام قليـلا بائسـا غير ناجزٍ * وأحضر نفسًا وانتهـى بمكاسـها
فأقسم لو أعطيت ما سمت مثلـه * وضعفا لـه لمـا غدوتَ براسـها
أغرَّك منـها أن نحرت حوارها * لجيـران أمِّ السَّكن يـوم نفاسـها
فولَّى و لم يطمعْ وفي النفس حاجة * يردِّدُهـا مـردودة بإيـاسـها (١)

فأبو الأسود لوتحققت فيه صفة البخل ما كان لينحر ولد ناقته،ويقدمه طعاما لجيرانه،ولا يفعل البخلاء مثل هذا الصنيع،وإنما يفعله الكرماء.

– 2الفطنة والحنكة :

وهذه الصفة من الركائز الأساسية التي اعتمد عليها في حكمه "موضوع البحث "يقول:

وبلـوتُ أخلاقَ الرجـالِ وفعلَهم * فشَبعْتُ علمـًا منهمُ وتجاربـا

فأخذتُ منـها ما رضيتُ بأخـذه * وتركـتُ أكثـرَ مـا هنالكَ جانبـا(٢)

٣ –الحزم والالتزام بالوعد :يقول مفتخرًا بهذه الصفة:

فإذا وعـدتُ الوعدَ كنتُ كغـارمٍ * دَيْنًـا أقِرَّ بـه وأحضرُ كـاتبـا
حتَّـى أُنَقِّـذَه كمـا وجَّهْتـه * وكفـى علـيَّ له بنفسي طالبـا (٣)

٤ –القناعة والترفع :

وهذه الصفة من أهم صفاته التي ينطق بها شعره،يقول :

ولا تُشْعِرَنَّ النفسَ يأسًـا فإنَّمـا * يعيـشُ بجـدٍّ حـازمٌ وبليـدُ

---

(١) ديوانه ص ٤٣٩ .
(٢) ديوانه ص ٥٢ .
(٣) ديوانه ص ٥٢.

ولا تَطْمَعَنْ في مـالِ جـارٍ لقربه * فكلَّ قريـبٍ لا يُنـالُ بعيـدُ[١]

– 5العفو والتسامح :

يقول في صديقه "الهيثم بن زياد "الذي أفشى سرًا له :

فلستُ بجازيكَ المـلامـة إنَّنـي * أرى العفـوَ أدنـى للسَّدادِ وأوسعا [٢]

هذه أهم صفات أبي الأسود الدؤلي ، التي استنبطناها من شعره، والتي كان لها كبير الأثر في توجيه حكمته وتشكيلها .

منابع الحكمة عند أبي الأسود:

إن المتأمل في حكم أبي الأسود الدؤلي، التي وردت في قصائده يجدها قد اتكأت على منابع ثرة،وروافد عديدة،استطاع من خلالها أن يشكل حكمته،ويقدمها في صور شتى،تأخذ بالألباب،وتسبي العقول،ومن أهم تلك المنابع:

– 1القرآن الكريم:

كان القرآن الكريم –وسيظل –المؤثر الأول في عشاق اللغة العربية وشعرائها عبر العصور المختلفة؛ لما أودعه الله فيه من بيان معجز،وبلاغة ساحرة،جعلت أفئدة الشعراء والأدباء تهوي إليه،محاولين اقتفاء أثره،واتباع بلاغته وبيانه.

وأبو الأسود الدؤلي واحد من هؤلاء الشعراء،الذين نهلوا من هذا المعين الثر،فأخرج حكما تنطق بتأثرها بالقرآن الكريم في ألفاظه ومعانيه،منها قوله:

تعوَّدتُ مسَّ الضُّرِّ حتَّـى ألفتـه * وأسلمنـي طـول البـلاء إلى الصبر
ووسَّع صدري للأذى كثرة الأذى * وكان قديمًـا يضيـق بـه صدري
إذا أنا لـم أقبل من الدهر كلَّ مـا * ألاقيـه منه طال عتبي على الدهر[٣]

ففي قوله ":تعوَّدتُ مسَّ الضُّرِّ حتَّـى ألفتـه "نراه يعتمد على النص

---

(١) ديوانه ص ٣٣٢.
(٢) ديوانه ص ٤٤.
(٣) ديوانه ص ٣٤٠.

القرآني وأيّوبَ إذ نادى ربَّهُ أنّي مسّني *الضُّرُّ* وأنتَ أرْحمُ الرَّاحمين [١]وهذا التأثر خصيصة من أهم الخصائص الفنية التي ينطق بها شعر الحكمة عند أبي الأسود الدؤلي .

– 2السيرة النبوية المطهرة:

كانت سيرة النبي صلى الله عليه وسلم النبع الصافي،الذي نهل منه الأدباء،واغترف منه الشعراء،فهاموا به حبا،وتاهوا به إجلالا وشوقا،واجتهدوا في أن يودعوا في أشعارهم من البيان النبوي ما يضفي على أساليبهم ومعانيهم ظلالا روحية بالغة الروعة والجلال، ومن أمثلة ذلك قول أبي الأسود في إحدى حكمه:

دعانــي أميري كـي أفوهَ بحاجتي * فقلتُ فما ردَّ الجــوابَ وما استمع
فقمتُ ولم أظفرْ بشـــيء ولم أصُنْ * كلامي وخيرُ القولِ ما صين أو نفعْ[٢]

ففي قوله ":وخيرُ القول ما صين أو نفعْ "يتكىء على الحديث النبوي الشريف، الذي رواه البخاري في صحيحه)من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت [٣]

– 3تجاربه وخبراته في الحياة :

عاش أبو الأسود الدؤلي حياته كلها في خدمة اللغة العربية التي نذر نفسه لخدمتها،حيث نشأ في القرن الأول الهجري، مع الرعيل الأول من المسلمين ، من أمثال عمر بن الخطاب،وعلي بن أبي طالب،وعبدالله بن عباس،وغيرهم كثير من الذين أثروا في حياة أبي الأسود، مما كان لهم الفضل في تشكيل شخصيته ،وخبرته التي اكتسبها في حياته.

يقول أبو الأسود:

وبلوتُ أخـلاق الرجـال وفعلَهم * فشبعتُ علمًـا منهمُ وتجـاربـا
فأخذتُ منهمُ مـا رضيتُ بأخـذه * وتركتُ أكثـرَ مـا هنالكَ جانبا[٤]

---

(١) الأنبياء / ٨٣ .
(٢) ديوانه ص ١٤٥.
(٣) صحيح البخارى بحاشية السندى ج ٤ ص ٥٤ – دار التراث العربى
(٤) ديوانه ص ٥٢.

-4الشعراء الأوائل[١] :

المتصفح لديوان أبي الأسود، وبخاصة شعر الحكمة، يجد كثيرًا منه قد اعتمد فيه على معاني الشعراء الأوائل وأساليبهم، وهذا يدل على مدى ثقافته،واطلاعه على نتاج الشعراء الفحول من أمثال امرىء القيس، وزهير بن أبي سلمى ،وغيرهما كثير.

يقول أبو الأسود مخاطبا زوجه "فاطمة بنت دعمي "حين ساءت عشرتها :

أفـاطـمُ مهلًا بعضَ هـذا التَّعَبُّسِ * وإن كان منكِ الجدُّ بالصَّرْمِ فايْأسي [٢]

فأبوالأسود في هذا البيت متأثر بقول امرىء القيس في حديثه لمحبوبته أيضا:

أفـاطـمُ مهلًا بعضَ هـذا التَّدَلُّلِ * وإن كنتِ قد أزمعتِ صرمي فأجملي[٣]

هذه أهم منابع الحكمة في شعر أبي الأسود الدؤلي،رصدناها كي تكشف لنا عن حقيقة حكمته،التي هي مناط البحث والدراسة.

---

(١) سنتناول أثر الشعراء الأوائل فى شعر أبى الأسود بشئ من التفصيل عند الحديث عن الخصائص الفنية فى شعره .

(٢) ديوانه ص ٢٧٦ .

(٣) ديوان أمرئ القيس ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ص ١٢ – الطبعة الرابعة – دار المعارف

الفصل الأول
موضوعات شعر الحكمة عند أبي الأسود

المتأمل في تاريخ شعر الحكمة يجد الشعراء –منذ العصر الجاهلي – قد درجوا على أن يودعوا قصائدهم خلاصة تجاربهم وخبراتهم في شتى مناحي الحياة، لذا لم يكن شعر الحكمة غرضًا مستقلا بذاته، بل جاء مبثوثا في ثنايا القصائد؛ ليكون برهانا على صحة أفكارهم.

وظل هذا النهج متبعا حتى العصر العباسي، ولم يخرج عنه سوى قلة من الشعراء،جعلوا بعض قصائدهم في شعر الحكمة،ومن أشهر هؤلاء الشعراء"صالح بن عبد القدوس "الذي يقول:

المـرءُ يجمعُ والزمـانُ يفرِّقُ * ويظل يرقـعُ والخطـوبُ تمزِّقُ (١)

ولكن النقاد عابوا عليه ذلك،وقالوا":لوكان شعر صالح بن عبدالقدوس مفرقا في أشعاره لصارت تلك الأشعار أرفع مما هي عليه بطبقات، ولصار شعره نوادر سائرة في الآفاق، ولكن القصيدة إذا كانت كلها أمثالا لم تسر ، ولم تجر مجرى النوادر(٢)

وإذا تصفحنا ديوان أبي الأسود نجد أنه –كغيره من الشعراء –لم يفرد لها قصائد بعينها ،وإنما جاءت مبثوثة بين ثنايا قصائده، اللهم إلا بعض المقطوعات التي جاءت كلها في غرض الحكمة.

ومن أهم موضوعات شعر الحكمة لديه:

أولاً -النصح والإرشاد:

من الأمور المسلم بها أن الحكمة تهدف إلى النصح والإرشاد ،وتكون خلاصة تجربة طويلة عاشها الشاعر،وقدمها بعد طول تأمل وتبصر بأمور الحياة،ولو فتشنا عن نصائح أبي الأسود لوجدناها وفيرة في شعره،ففي إحداها نراه يصرح بأن الدهر لا يبقى على حالة واحدة،وأن الحياة تقوم على الخير والشر، فإذا أصاب الإنسان مكروه فلا يجزع،وليتسلح بالصبر؛لأن

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ، ج٢ ص ٤٩٢ ، تحقيق د / إحسان عباس ، ط دار صادر بيروت ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ، ج١ ص ٢٠٦ ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجى بمصر ،

الدهر لا يصبر، يقول:

الدهــر لا يبقــى على حـالة * لكنــَّه يُقبِــلُ أو يدبــرُ
فـإن تلقــاكَ بمكـروهــه * فاصبر فإنَّ الدهــر لا يصبر[١]

ولعل هذين البيتين قد تأثر بهما "أحمد شوقي "في قصيدته "كبار الحوادث "حينما قال:

هكـذا الدهر حـالة ثـمَّ ضدَّ * مـا لحـالٍ مع الزمـان بـقـاءُ [٢]

وكان لأبي الأسود ابن يقال له أبو حرب،وكان له صديق من باهلة يكثر زيارته ،وكان أبو الأسود يستريب منه، فقال لابنه:

وأحْبِبْ إذا أحببتَ حبّـَا مقاربـا * فإنـك لا تدري متى أنت نــازعُ
و أبغضْ إذا أبغضتَ بغضا مقاربا * فإنك لا تدري متــى أنت راجعُ
وكن معدنًا للحِلْمِ واصفحْ عن الأذى * فإنَّكَ راءٍ ما عملتَ وسامــعُ [٣]

فأبو الأسود في هذه الأبيات يقدم نصيحته لولده بأن يكون معتدلا في حبه وبغضه،لا إفراط ولا تفريط، فالاعتدال شيء يقي الإنسان من الوقوع تحت تأثير هواه ، ثم يدعوه للحلم والصفح ،وهذه الصفات تسمو بالإنسان،وترتقي به.

ويواصل أبو الأسود تقديم نصائحه لولده، فيقول:

لا تُلْقِيَـنَّ مقـالةً مشـهـورةً * لا تستطيـعُ إذا مضتْ إدراكــها
أكْرِمْ صديـقَ أبيـكَ حيثُ لقيتَـه * واحبُ الكرامــةَ مَنْ بـدا فحَبَاكـها
لا تُبْدِيَـنَّ نميـمـةً حُدِّثْتَـها * وتَحَفَّظَنَّ من الــذي أنبـاكــها
إن الـذي يُلْقـي إليـكَ نميمــةً * سَيَنُمُّ عنكَ بمثلِـها قد حـاكــها [٤]

فالأبيات السابقة تشتمل على عدة نصائح ثمينة،بدأها أبو الأسود بالتأني والتثبت والتمهل عند الحديث، فالكلمة قبل أن تخرج من لسانك فهي ملك لك، أما إذا خرجت فإنها تملكك، فوجب عليك التروي والتفكر فيما

---

(١) ديوانه ص ١٧.
(٢) الشوقيات ج١ ص ٦ – مطبعة مصر .
(٣) ديوانه ص ١٠٤ .
(٤) ديوانه ص ١٧٣ .

تقول، والنصيحة الثانية،فهي إكرام صديق الأب، ونرى أبا الأسود في هذه النصيحة يعتمد على الحديث النبوي الشريف الذي رواه البخاري بسنده عن أسيد بن علي بن عبيد عن أبيه أنه سمع أبا أسيد يحدث القوم،قال:

)كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم، فقال رجل:يا رسول الله هل بقي من بر أبويّ َشيء بعد موتهما أبرهما؟قال:نعم، خصال أربع :الدعاء لهما والاستغفار لهما ،وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التي لا رحم لك قبلها(١)

ثم ختم أبو الأسود حديثه في هذه الأبيات عن خلق ذميم،ذاع عند كثير من الناس، الذين مرضت نفوسهم، واتخذوا من أعراض الناس مجالا للحديث والمسامرة، وهذا الخلق الذميم هو الغيبة والنميمة،فحذر من خطرها،وبين أنَّ مَنْ نمَّ لكَ سينمُّ عليك لامحالة.

ولكن كان من الأولى على أبي الأسود أن ينصح ولده –بداية –بعدم الاستماع إلى النميمة،والجلوس في مجالسها، لا أن يستمع إليها، ثم يكتمها،ويأخذ حذره من صاحبها،فهذا أجدر،ولاسيما أن القرآن الكريم نهى عن الغيبة والنميمة،فقال تعالى) :**) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ**(٢)

ومن جميل نصائحه أنه ذات يوم أراد الخروج إلى فارس، فقالت له ابنته :يا أبتِ إنك قد كبرت ،وهذا صميم الشتاء،فانتظر حتى ينصرم،ويُسْلك الطريق أمنا ، فإني أخشى عليك، فقال:

إذا كنتَ معنيًّا بأمرٍ تريده * فما للمِضَاءِ والتوكل من مثل
توكّلْ وسلِّمْ أمرَكَ الله إنَّ ما * ترادُ به آتيكَ فالْجَأْ لذي الفضل
ولا تحسَبَنَّ السيرَ أقربَ للردى * من الخسف في دار المقامة والذُّلِّ
وكائنْ ترى مِنْ حاذرٍ متحفِّظٍ * أصِيبَ ولاقته المنيَّةُ في الأهل (٣)

---

(١) الأدب المفرد للإمام البخارى ج١ ص ٢٧ – الطبعة الثالثة – تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى – دار البشائر الإسلامية – بيروت ١٤٠٩هـ / ٩٨٩م

(٢) الحجرات / ١٢

(٣) ديوانه ص ٥٠

فأبو الأسود في هذه الأبيات ، تخرج حكمته من نفس مؤمنة إيمانا لا يتزعزع بأن الإنسان إذا أقدم على شيء فليتوكل على الله،وليسلم أمره لله،لأن الآجال بيده سبحانه وتعالى، وهذا مظهر من مظاهر تدين أبي الأسود وإيمانه، وكم من صحيح معافى وافته منيته وهو بين أهله وأحبابه، يقول تعالى):**إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** [١]

ثانيًا -الحث على السعي وطلب الرزق :

يعد السعي وطلب الرزق من أهم موضوعات شعر الحكمة عند أبي الأسود؛وذلك إيمانا منه بأثر العمل ، وقيمته في حياة الإنسان.

ولقد ورد في أكثر من موضع في القرآن الكريم الحث على العمل، وطلب الرزق، قال تعالى) :**وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** [٢]

والأحاديث النبوية التي تحث على العمل وطلب الرزق أكثر من أن تحصى أو تعد،منها ما رواه الطبراني من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال):من أمسى كالا من عمل يده أمسى مغفورا له [٣]

وتراث العرب ملىء بالوصايا والحكم والأمثال التي تشجع على العمل،وطلب الرزق ، وقد جاء في الأثر ":السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة " ومن ثَمَّ جاء اهتمام أبي الأسود بهذا الموضوع .

يقول أبو الأسود معاتبا ابنه أبا حرب ، وقد انقطع عن العمل وطلب الرزق:

وما طلبُ المعيشةِ بالتَّمَنِّي * ولكنْ ألقِ دلوَكَ في الدِّلاءِ
تجِئْكَ بملئِها يوماً، ويوماً * تجيء بحَمْأةٍ وقليلِ ماءِ
ولا تقعدْ على كسلِ التَّمَنِّي * تحيلُ على المقادرِ والقضاءِ
فإنَّ مقادرَ الرحمنِ تجري * بأرزاقِ الرجالِ من السَّماءِ
مقدَّرةً بقبضٍ أو ببسطٍ * وعجزُ المرءِ أسبابُ البلاءِ [٤]

---

(١) لقمان / ٣٤

(٢) التوبة / ١٠٥

(٣) المعجم الأوسط للإمام الطبرانى ، ج٧ ص ٢٨٩ تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد ، طبعة دار الحرمين ١٤١٥هـ

(٤) ديوانه ص ٣٠٤ .

فأبو الأسود في هذه الأبيات يركز على أهمية العمل في الحياة، وطلب الرزق، وعدم التواكل .

والمتأمل في الأبيات السابقة يرى أنها كانت منبعًا ثرًّا لكثير من الشعراء، تأثروا بها، ونهلوا من معينها، وصاغوا معانيها في أشعارهم، فنرى صالح بن "عبد القدوس "يقول :

والناسُ فـي طلبِ المعـاشِ وإنمـا * بالجد يُـرْزَقُ منهُـمُ مَـنْ يُرْزَقُ (١)

وأيضا أخذ هذا المعنى أبو تمام ، وصاغه في قوله :

بَصُرْتَ بالراحـةِ الكبرى فلم ترها * تنالُ إلا علـــى جسرٍ من التَّعبِ (٢)

ونرى تأثر "أحمد شوقي "بالشطر الأول من بيت أبي الأسود "وما طلب المعيشة بالتمني "ناطقا في قوله :

وما نيل المطـالب بالتمنـــي * ولكـن تؤخَذُ الدنيـا غـلابـا (٣)

ولكن شوقيا توسع في المعنى،وانطلق إلى ما هو أشمل وأرحب، وأهم شأنًا،من كسب الرزق اليومي،إلى طلب تحقيق الغايات العظام،التي تتطلب همة عالية، وسعيا صادقا، من أجل تحقيقها.

ويواصل أبو الأسود حديثه عن قيمة العمل، والحث عليه، فيقول:

المـرءُ يسعـى ثـمَّ يدركُ مجده * حتـى يُزَيَّـنَ بالـذي لـم يَفْعـلِ
وتـرى الشَّقِـيَّ إذا تكامـل غيــه * يُرْمـى ويُقْذَفُ بالـذي لـم يَعْمَلِ (٤)

فأبو الأسود يوضح أن مناط حمد الإنسان راجع إلى جده واجتهاده وسعيه في الحياة، وعلى قدر جهده واجتهاده يكون حمده من الناس، بل أحيانا يحمده الناس على أشياء لم يفعلها؛ لأنهم تعودوا منه على الكفاح والاجتهاد،

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ، ج٢ ص ٤٩٢ ـ تحقيق د / إحسان عباس ، ط دار صادر بيروت ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .

(٢) ديوان أبى تمام بشرح الخطيب التبريزى ، تحقيق محمد عبده ، المجلد الأول ص ١٤٣ – دار المعارف

(٣) الشوقيات ج ٢ ص ٦٢ ، الطبعة الأولى – دار الكتاب العربى بيروت .

(٤) ديوانه ص ٣٦٥ .

فصارت صورته في أعينهم ملازمة للسعي والعمل.
ولو تأملنا هذين البيتين لوجدنا أبا الأسود يرسخ قيمة العمل، ويبين أثره في تكوين شخصية الإنسان ومكانته بين أبناء مجتمعه.

ثالثًا –فضل العلم :

جاء الحديث عن فضل العلم في حكم أبي الأسود مخالفا لجميع موضوعات الحكمة عنده؛ حيث نظم قصيدة كاملة يتحدث فيها عن العلم ورسالته السامية ،وأثره في بناء المجتمع الذي لا غنى له عن العلم وأهله، وهذا اعتراف من أبي الأسود بقيمة العلم التي قد يتجاهلها بعض الناس،وكأنهم نسوا قول النبي صلى الله عليه وسلم):إن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، إنما ورثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر(١)

يقول أبو الأسود:

العلـم زيْنٌ وتشريفٌ لصاحبه * فاطلب هديت فنـونَ العلـمِ والأدبا
لا خيـرَ فيمـن له أصلٌ بلا أدبٍ * حتـى يكـونَ علـى ما زانـه حدبـا
كم من حسيبٍ ألاخـي عيٍّ وطمْطَمَةٍ * فدْمٍ لـدى القـومِ معروق إذا انتسبـا
فـي بـيـت مكرمةٍ آبـاؤه نُجُبٌ * كانـوا رؤوسًا فأمسـى بعدهم ذنبـا
وخامـلٍ مقـرفِ الآبـاءِ ذي أدبٍ * نـالَ المعالـيَ بالآدابِ والـرتبا (٢)

فالأبيات السابقة تظهر فيها بوضوح دعوة أبي الأسود للإقبال على العلم والأدب،فهما شرف لصاحبهما، ثم راح يدلل في البيت الثاني على أن السيادة، والشرف الحقيقي إنما هما بالعلم؛ فكم من شريف بآبائه أضحى بالجهل وضيعا،وكم من وضيع نفض العلم عنه وضاعته،وجعله يتقدم الصفوف، وينال المكانة السامية، والمنزلة الرفيعة.

وأبوالأسود في بيته الرابع:

فـي بـيـت مكرمةٍ آبـاؤه نُجُبٌ * كانـوا رؤوسًا فأمسـى بعدهم ذنبـا

نراه متأثرا في هذا المعنى بقول "الحطيئة:"

---

(١) سنن الترمذى ص ٧٢٢ – دار إحياء التراث العربى
(٢) ديوانه ص ٣٨٣ .

قومٌ همُ الأنفُ والأذنابُ غيرُهمُ * ومَنْ يُسَوِّ بأنفِ الناقةِ الذَّنبا (١)

وكما أن أبا الأسود قد تأثر بالحطيئة في هذا المعنى فإن الإمام الشافعي قد تأثر ببيت أبي الأسود:

وخاملٍ مقرفِ الآباءِ ذي أدبٍ * نالَ المعاليَ بالآدابِ والرتبا (٢)

فنراه يأخذ هذا المعنى فيقول:

رأيتُ العلمَ صاحبُه كريمُ * ولو ولدته آباءٌ كرامُ

فلولا العلمُ ما سعدتْ رجالٌ * ولا عُرفَ الحلالُ ولا الحرامُ (٣)

وظاهرة التأثير والتأثر هذه إحدى ثمرات الأدب ، ومن أهم العوامل التي بها يرقى الأدب ؛ لأن التلاقح الفكري بين الشعراء –قديمهم وحديثهم - يثري العمل الأدبي، ويفتح أمامه مجالاتٍ خصبةً، ودروبا واسعة للتحليق في سماء الشعر.

ويواصل أبو الأسود حديثه عن العلم وقيمته، فيعقد مقارنة بين جامع العلم وجامع المال، فيقول:

العلمُ ذخرٌ وكَنْزٌ لا نفادَ له * نعْمَ القرينُ إذا ما صاحبٌ صحبا

قد يجمعُ المرءُ مالا ثم يُسْلَبه * عمَّا قليلٍ فيلقى الذُّلَّ والحَرَبَا

وجامعُ العلمِ مغْبوطٌ به أبدا * ولا يُحاذرُ فيه الفوْتَ والسَّلَبا

يا جامعَ العلمِ نِعْمَ الذُّخْرُ تجمعه * لا تعدِلَنَّ به درًّا ولا ذهبا (٤)

فما أجمل هذه المقارنة التي عقدها أبو الأسود بين جامع العلم وجامع المال، ليخلص في النهاية إلى أن الكنز الحقيقي الباقي هو العلم الذي لا يُخشى على صاحبه، لأنه محروس به كما قال الإمام "علي بن أبي طالب " رضي الله عنه ،عندما سُئِلَ عن العلم والمال،وأيهما أفضل من الآخر، فقال":العلم خير من المال.والعلم يحرسك وأنت تحرس المال.المال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الإنفاق،وصنيع المال يزول بزواله.....العلم دين

---

(١) ديوان الحطيئة ، شرح أبى سعيد السكرى ص ١٧ ، دار صادر بيروت ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

(٢) ديوانه ص ٣٨٣ .

(٣) ديوان الإمام الشافعى ص ١٠٧ ، اعتنى به عبد الرحمن المصطاوى الطبعة الثالثة ، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م دار المعرفة ، بيروت لبنان .

(٤) ديوانه ص ٣٨٤ .

يدان به، به يكسب الإنسان الطاعة في حياته، وجميل الأحدوثة بعد وفاته، والعلم حاكم والمال محكوم عليه، هلك خزان الأموال وهم أحياء ,والعلماء باقون ما بقي الدهر "[١]

وإذا أنعمنا النظر في قصيدة أبي الأسود هذه لوجدناه يعرض قضيته أولا، ثم يأتي بالأدلة الدامغة، والبراهين الساطعة على صحة ما عرض، وهذا من أهم خصائص شعر الحكمة لديه.

وأيضا جاء ختام هذه القصيدة موفقا؛ حيث أنهاها أبو الأسود ببيت جمع فيه كل المعاني التي طرحها في القصيدة، وبدأه بالنداء على طالب العلم -في كل زمان ومكان –أن يجتهد في طلبه؛لأنه نعم الكنز الذي لا يعدله ذهب ولا لؤلؤ.

رابعًا –الحديث عن الظلم :

أفاض أبو الأسود الدؤلي في شعر الحكمة عنده في الحديث عن الظلم، وما يفعله بالإنسان من إحساس بالعجز،وشعور بالمرارة، وأنه لم يستطع أن يأخذ حقه في هذه الحياة، مع أنه يستحق –في رأيه -المكانة العظمى،والمنزلة الرفيعة،في حين يحصل عليها هؤلاء الذين ليس لديهم مقومات تدفعهم لتبوئهم هذه المكانة ، يقول :

أفٍّ لدهرٍ فعلُه مذمومُ * يُعْلي عديم الفضل وهْوَ زنيمُ
فترى الغبيَّ معظَّمًا لِيساره * إن قام قام الكل حين يقومُ
وترى اللبيبَ محقَّرًا لم يقترف * شتم الرجال وعرضُه مشتومُ [٢]

فالأبيات السابقة تنطق بمرارة أبي الأسود، حيث يرى في فعل الدهر غمطًا لحقوق النابهين، وتجاهلا لمكانتهم في الحياة، وإعلاءً لشأن الأغبياء الذين ملكوا المال فاستمالوا إليهم القلوب.

والمتأمل في أبيات أبي الأسود يجد أنه ساخط على دهره الذي قدَّم من لا يستحقون على من يستحقون، وهذا هو الظلم البين، ولكن يا ترى ماذا كان سيقول أبو الأسود لو عاش في زماننا هذا الذي أصبحنا نعاني فيه ألوان الظلم

---

(١) نهج البلاغة للإمام على بن أبى طالب ، شرح الإمام الشيخ محمد عبده ، ج٤ ص ٣٦.
(٢) ديوانه ص ٤٠٣.

في شتى مناحي الحياة؟!!

وكان لأبي الأسود صديق من بني تميم بن سعد يقال له"مالك بن أصرم "وكان بينه وبين ابن عم له خصومة في دار له، فاجتمعا عند أبي الأسود فحكماه بينهما، فقال له خصم صديقه :إني بالذي بينك وبين هذا عارف، فلا يحملنك هذا على أن تحيف عليّ في الحكم .وكان صديق أبي الأسود ظالما، فقضى أبو الأسود على صديقه لخصمه بالحق، فقال له صديقه :والله ما بارك الله لي في صداقتك، ولا نفعني بعلمك وفقهك، ولقد قضيتَ عليَّ بغير الحق، فقال أبو الأسود:

إذا كنتَ مظلوما فلا تكُ راضيا * عن القوم حتى تأخذَ النَّصْفَ واغْضَبِ
وإن كنتَ أنت الظالمَ القومَ فاطَّرِحْ * مقالتهم واشْغَب بهم كلَّ مشْغَبِ
وقارب بذي جهلٍ وباعد بعالم * جَلُوبٍ عليك الحقَّ من كل مجْلَبِ
فإن حدِبوا فاقعسْ وإنْ همْ تقاعسوا * ليستمكنوا ممَّا وراءكَ فاحْدَبِ (١)

فالشاعر في هذه الأبيات يخاطب صديقه الذي حكم عليه، وينصحه إن كان يشعر في قرارة نفسه أنه مظلوم فلا يرضى بهذا الحكم،ولا يسكت عن المطالبة بحقه حتى يحصل عليه، وأما إن كان ظالما ، فلا يهتم بكلام قومه، وليضرب به عرض الحائط، ثم ينصحه بأن يقرب منه الجهلاء الذين يساندونه بالباطل وبالحق، وليبعدْ عنه العلماء؛ لأنهم لن يقولوا إلا حقا، وهذا سيضره لا محالة، ثم ينهي وصيته بأن يكون حكيما في تعامله مع قومه، فلا يُقبل عليهم إن هم أقبلوا، ولا يُدبر عنهم إن أدبروا، ولكن يتعامل معهم بشعرة معاوية.

وإذا أنعمنا النظر في الأبيات السابقة –ما عدا البيت الأول –نجد أبا الأسود يقدم هذه الوصايا بطريقة ساخرة، لا على الحقيقة؛ لأنه لا يعقل أن يكون عالم مثله تربى على أخلاق القرن الأول الهجري،وسمع من النبي صلى الله عليه وسلم،ومن صحابته الكرام، رضوان الله عليهم جميعا،ويصدر عنه مثل هذا الكلام الذي يتعارض مع مبادىء ديننا الحنيف، وأخلاق العلماء النبلاء، فهو قال هذا الكلام بعد أن شعر باستياء صديقه منه، وعدم رضاه عن حكمه، والدليل على أن كلام أبي الأسود ليس على سبيل الجد، وإنما هو على سبيل السخرية، قوله في آخر القصيدة:

---

(١) ديوانه ص ٤٨ .

ولا تدعني للجور واصبر على التي * بها كنتُ أقضي للبعيد على أبي
فإني امرءٌ أخشى إلهي وأتَّقــي * معادي وقد جربتُ ما لم تجربِ (١)

فالبيتان يدللان على أن نصائح أبي الأسود لصديقه كانت على سبيل السخرية، وليست على سبيل الحقيقة.

ولكن ما كان يجب عليه أن يصدر عنه هذا الكلام،حتى ولو على سبيل السخرية،فقد يقرأ هذه الأشعار قارىء، ولا يربط بينها وبين سبب نظمها فيأخذ الكلام على ظاهره، ومن هنا يصبح أبو الأسود الدؤلي داعيا للظلم، ومصاحبة الجهلاء، وداعيا لإبعاد العلماء، وهذا ما لا نرتضيه ، ولا نوافق عليه.

خامسًا –الدعوة إلى حسن الخلق :

تأتي الدعوة إلى حسن الخلق في حكم أبي الأسود من أهم موضوعات شعره، لأن أبا الأسود يعلم تماما أن مكارم الأخلاق هي الهدف الأسمى الذي بعث من أجله رسول الله عليه وسلم ، الذي قال في حديثه الشريف ، الذي رواه أبو هريرة):إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق(٢)

وكان أبو الأسود في شعره حريصا على إظهار قيمة حسن الخلق، والدعوة إلى التحلي به، فجاءت أبياته تنطق بها في وضوح وجلاء، يقول:

المـرءُ بعدَ المـوتِ أحدوثــةٌ * يفنـى وتـبـقـى مـنـه آثــاره
فأسعدُ النـاسِ امـرؤ مـحـسـنٌ * تطيـبُ بعدَ المـوتِ أخبــاره (٣)

فأبو الأسود في هذه الأبيات يركز على أهمية حسن الخلق، ويوضح أن الإنسان بعد موته لا يبقى له ذكر بين الناس إلا من خلال حسن خلقه، وأفعاله الطيبة التي كان يقوم بها في الدنيا، وأسعد الناس -عنده -المحسن الكريم، الذي يعطف على الصغير، ويرحم الضعيف، ويساعد المحتاج.

فبمثل هذه الصفات الطيبة يحيا الإنسان محمودا بعمله في الدنيا، وبعد وفاته.

ومن حسن الخلق فضيلة الصبر، التي حث القرآن الكريم في كثير من

---

(١) ديوانه ص ٤٧ .
(٢) السنن الكبرى للبيهقى ، ج١٠ ص ١٩١ ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، مكتبة دار الباز ، مكة المكرمة ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م .
(٣) ديوانه ص ١٧ .

آياته على التحلي بها، من مثل قوله تعالى :**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** [١]

وأيضا دعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى التحلي بها في كثير من أحاديثه الشريفة من مثل ما رواه أبوسعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم):من يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاءً خيرا وأوسع من الصبر[٢]

ويقول الإمام علي -كرم الله وجهه -مبينا منزلة الصبر، وحاثًّا على التحلي بها ":عليكم بالصبر؛ فإن الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد، ولا خير في جسد لا رأس معه، ولاخير في إيمان لا صبر معه "[٣]

لذا وجدنا أبا الأسود يركز في حكمه على هذه الفضيلة، ويدعو إلى التحلي بها في مواجهة ما ينزل بالإنسان من مصائب في حياته، والتسلح بها أمام نكبات الدهر، يقول:

الدهرُ لا يبقى على حالةٍ * لكنه يُقبل أو يُدبرُ
فإن تلقَّاكَ بمكروهه * فاصبر فإن الدهر لا يصبر[٤]

فالبيتان فيهما نصح مباشر،ودعوة صريحة إلى التمسك بفضيلة الصبر، ويواصل أبو الأسود حديثه عن فضيلة الصبر فيقول :

تعوَّدْتُ مسَّ الضرِّ حتى ألفتُه * وأسلمني طول البلاء إلى الصبر
ووسَّعَ صدري للأذى كثرة الأذى * وكان قديما يضيق به صدري
إذا أنا لم أقبل من الدهر كل ما * ألاقيه منه طال عتبي على الدهر [٥]

فالشاعر في هذه الأبيات يعلن أنه قد ألف الضر،وذلك لتعوده عليه حتى صار عادة لديه، وأسلمه كثرة نوازل الدهر إلى التحلي بالصبر، فكثرة الأذى كانت سببا مباشرا في تحمله هذا الأذى والصبر عليه، بعد أن كان في الماضي لا يستطيع أن يصبر على مواجهة هذه الصعاب،ثم يختم حديثه بأنه ينبغي عليه أن يقبل من الدهر كل نوازله،لأنه إن لم يفعل لطال عتابه عليه .

---

(١) البقرة / ١٥٣ .
الجمع بين الصحيحين – البخارى ومسلم – لمحمد بن فتوح الحميدى – ج٢ ص ٣٢٠ ، تحقيق على حسين البواب – دار ابن حزم ، بيروت ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٠م .
(٣) نهج البلاغة للإمام على بن أبى طالب ، ج٤ ص ١٨ .
(٤) ديوانه ص ١٧ .
(٥) ديوانه ص ٣٤٠ .

وأرى :أن أبا الأسود في الأبيات السابقة لم يكن موفقا في الحديث عن فضيلة الصبر وقيمتها؛ لأنه أرجع صبره إلى تعوده على كثرة النوازل التي تحل عليه، فصبره هذا صبر تعود، لا صبر إيمان، وهناك فرق كبير، وبون شاسع بين المعنيين، فصبر التعود لا أثر له في نفس المؤمن،بخلاف الصبر الذي منبعه الإيمان بالله وحده، فهذا هو الصبر الذي يغرس في الإنسان قيما روحية،ومعاني سامية .ولا أظن أن أبا الأسود قد تعمد هذا المعنى، وإنما أراه أتى به عرضا في حديثه عن شكواه من الدهر، وما ينزل به من نوازل، فالأبيات في المقام الأول تتحدث عن الشكوى، ثم يأتي الحديث عن الصبر مكملا لما بدأه من حديثه عن شكواه .

هذه أهم موضوعات شعر الحكمة عند أبي الأسود الدؤلي، عرضناها بإيجاز لتكشف لنا في الفصل القادم عن أهم الخصائص الفنية التي اتسم بها شعر الحكمة لديه.

الفصل الثاني
الخصائص الفنية لشعر الحكمة عند أبي الأسود الدؤلي

مما لا شك فيه أن أي فن من فنون الأدب له خصائصه وسماته التي تميزه من غيره،وقد يتفرد بهذه الخصائص، وقد يشترك مع غيره فيها، وفن الشعر عمل إبداعي، وحين يجمع الشاعر عناصر التأثير في المتلقي من لغة موحية،وخيال محلق،وإيقاع مؤثرومعنى سام ، فإنه يفتح دروبا من الآفاق الشعورية، فتهتز لها الأحاسيس، وتطرب لها المشاعر،وحينئذ يشعر المتلقي بالمتعة والفائدة.

ومن خلال ما تم عرضه في الفصل الأول من نماذج لشعر الحكمة عند أبي الأسود، وهيمنة هذا الغرض على شعره، يمكننا أن نضع أيدينا على أهم الخصائص الفنية التي اتسم بها شعر الحكمة عنده، وأهمها:

أولاً –الألفاظ والأساليب :

تعد اللفظة الشعرية الأداة التي بها يعبر الشاعر عما يجيش في صدره، ويدور في خلجات نفسه، فالكلمة هي":أداة الأديب في نقل أفكاره ومعانيه، ورسم صوره، وبناء موسيقاه، وهي الوعاء الذي يصب فيه الأديب ما تجيش به عاطفته من معان وخواطر وأحاسيس ومشاعر، وهي بالنسبة للأديب كالألوان للرسام، والحجر للمثال، ومن هذه الكلمة تتكون العبارة، وتتكون الصورة الأدبية، ويتخلق أسلوب الأديب الذي يعرف به، وينسب إليه، ومن الكلمة تتكون الموسيقى اللفظية فيما نقرؤه من شعر موزون، وفيما نتلوه من جمل لها توقيع منغوم "[١]

وتكمن مهارة الشاعر "في استعماله اللفظة في الشعر استعمالا شعريا دقيقا، يدل على مهارة وفن، فعلى الشاعر أن يستخدم ألفاظا موحية؛ لأن الكلمة الموحية أهم عناصر الصياغة الشعرية[٢]

ولو توقفنا قليلا أمام حكم أبي الأسود لوجدنا بعضا منها يسير مسرى المثل، ويتغنى بها الناس، وتنشدها الأجيال، ويستشهد بها الخطباء والأدباء للتدليل على صحة أقوالهم.

ولم تصل حكم أبي الأسود إلى هذه المنزلة الرفيعة إلا لأنه استطاع

---

(١) فى ميزان النقد الأدبى ، د/ طه أبو كريشة ص ٢١ ، الطبعة الألى ١٩٧٦.

(٢) النقد الأدبى فى مذاهبه وقضاياه ، د / عبد الفتاح على عفيفى ، ص ٩٤ بتصرف – ط ١٩٨٧م.

بمهارته أن يعرض هذه الحكم عرضا أدبيا رائعا، مما جعلها تدور على ألسنة الناس في كل زمان ومكان.

والمتأمل في ألفاظ شعر الحكمة عنده يجد -أكثرها -ألفاظا مألوفة، لا تحتاج إلى كد ذهن،أو البحث عنها في قواميس اللغة لإزالة ما يكتنفها من غموض أو إبهام؛ لأنه عني بها عناية فائقة، فجاءت موافقة وملائمة للمعنى الذي ينظم فيه، فنراه قد أجاد في اختيار ألفاظه، وتأليف عباراته، ولا أدل على ذلك من قوله:

لا تُلْقِيَـنَّ مقـالةً مشـهورةً * لا تستطيـعُ إذا مضتْ إدراكـــها
أكْرِمْ صديـقَ أبيـكَ حيثُ لقيتَـه * واحبُ الكرامــةَ مَنْ بـدا فْحَبَاكـها
لا تُبْدِيَـنَّ نميـمـةً حُدِّثْتَـها * وتَحَفَّظَنَّ من الــذي أنبـاكــها
إن الـذي يُلْقـي إليـكَ نميمــةً * سَيَنُمُّ عنكَ بمثلِـها قـد حـاكــها (١)

وإذا أنعمنا النظر في هذه الألفاظ نجد أنها قد غلب عليها السهولة والوضوح، وذلك يتناسب مع شعر الحكمة الذي يعبر بصدق عن أدق الطبائع البشرية، ويتحدث عن تجاربها، وما فيها من آلام وآمال، فيقتضي ذلك أسلوبا جميلا، ولفظا قريبا، حتى تنتشر هذه الأبيات بين الناس انتشار النار في الهشيم .ولو وقفنا أمام نموذج آخر كقوله :

ومـا طلبُ المعيـشـةِ بالتَّمَنِّـي * ولكـنْ ألـق دلـوَكَ فـي الـدِّلاءِ
تجِئْكَ بملئِـها يومـا، ويومـا * تجـيء بحَمْـأةٍ وقليـلِ مــاءِ
ولا تقعدْ علـى كسلِ التَّمَنِّـي * تحيـلُ علـى المقـادر والقضـاءِ
فإنَّ مـقـادرَ الرحـمـنِ تجـري * بأرزاق الرجـالِ مـن السَّمـاءِ
مـقـدَّرةً بقبـضٍ أو بـبـسـطٍ * وعجزُ المرءِ أسبـــابُ البلاءِ (٢)

لوجدنا هذه اللبنات الشعرية التي اعتمد عليها أبو الأسود سهلة واضحة ، لا غرابة فيها،ولا تعقيد،بل جاءت ملائمة ومناسبة للمعنى الذي يتحدث عنه،وهو الحث على طلب الزق،والدعوة إلى العمل وعدم التواكل، فنجد الألفاظ المناسبة لذلك من مثل قوله":ألق -دلوك -تجئك-بملئها -

لا تقعد " -كما يلاحظ لى هذه الألفاظ أنها جاءت متآخية منسجمة مع بعضها على البعض، من مثل قوله ":الحمأة ، الماء –الكسل، التمني – المقادر، القضاء –القبض، البسط –العجز، البلاء."

---

(١) ديوانه ص ١٧٣ .
(٢) ديوانه ص ٣٠٤ .

ومن النماذج القليلة التي خرجت فيها الألفاظ عن المألوف و اتسمت بالغموض وشيء من الغرابة، قوله يعاتب صديقا له:

ألمْ ترَ أنـي لا ألـوِّنُ شيمتـي * تلوَّنَ غـولِ الليـلِ بالبلدِ المُقْضي (١)

ولستُ بنـاموسٍ سَبوتٍ دَلَهْمَسٍ * كحمّى هُـلاعٍ لا تبوخُ ولا يَقْضي(٢)

ولستُ برشَّـاشٍ رشيـقٍ مُلَـهْوَقٍ * جـوادٍ بمكذوبِ المواعدِ والقَرْضِ (٣)

فسَلْ بـي ولا تسْتَحْـي مني فإنه * كذلكَ بعضُ الناسِ يسْألُ عن بعضِ (٤)

فالألفاظ :ناموس، سبوت، دلهمس، حمى هلاع، رشاش، ملهوق، ، ألفاظ يكتنفها الغموض، وتغلفها الغرابة، وتستدعي أن نطلب معانيها من خلال البحث عنها في قواميس اللغة،لنقف عليها، ونفهم ما ترمي إليه.

وفي الحقيقة أن مثل هذه الألفاظ قليلة في شعر أبي الأسود، ولعل السر في ذلك تأثره بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، اللذين طبعا شعره بالوضوح والقرب .

وبالنظر في بعض حكمه تتضح معالم معجمه الشعري، فنرى الألفاظ الموحية، والأساليب المعبرة، التي استقاها من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، مما جعل شعره يزخر

بالألفاظ القرآنية، ولا غرو في ذلك؛ لأنه تربى على مائدة القرآن الكريم في مدرسة النبوة، فكان أمرا طبعيا أن يتأثر بالبيان القرآني والبيان النبوي، وينعكس ذلك على شعره.

ومن أمثلة ذلك ما وصَّى به ابنته حيث قال لها":إياكِ والغيرة فإنها مفتاح الطلاق، وعليك بالزينة،وأزين الزينة الكحل،وعليك بالطيب، وأطيب الطيب إسباغ الوضوء، وكوني كما قلت لأمك في بعض الأحايين:

خـذي العفوَ منِّـي تستديمي مودَّتي * ولا تنطقي في سورتي حين أغضبُ

فإني وجدت الحبَّ في الصدر والأذى * إذا اجتمعـا لم يلبث الحبُّ يذهبُ (٥)

فأبو الأسود في هذين البيتين ينهل من البيان القرآني، ويتكىء على

---

(١) أى لا أتلون خلق كذا وخلق كذا .

(٢) الناموس : ذو الغش الخبيث الظن ، والسبوت : السكون ؛ يسكن مرة ويهيج أخرى . والدلهمس : الجرئ ، وحمى هلاع هى أشد النافض س، وتبوخ : تذل ، يقال باخة يبوخه بوخاً : أى أذله .

(٣) الرشاش : الذى يبدى لك غير ما فى قلبه . والملهوق : الكذوب ، يقال : لهوق فى حديثه إذا كذب .

(٤) ديوانه ص ٦٢ /٦٣ .

(٥) ديوانه ص ٣٨١ ٦٣ .

قول الله –عز وجل) –**خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ**[١] وفي حديثه عما فُعِلَ بالحسين رضي الله عنه، نراه يقول:

أقول وزادني جزعًا وغيظًا * أزالَ اللـه ملكَ بني زيادِ
وأبعدهم بما غدروا وخانوا * كما بَعُدتْ ثمودُ وقومُ عادِ
ولا رجعتْ ركابُهمُ إليهم * إذا وقفتْ إلى يومِ التَّنادِ [٢]

فالأبيات ناطقة بتأثر أبي الأسود بالقرآن الكريم في ألفاظه ومعانيه، من مثل قوله":التناد، بعدت، ثمود، عاد "وهو في هذه الأبيات متأثر بقول الله تعالى):**ألا إنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ألا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ**[٣] وقوله تعالى):

ألا إنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ألا بُعْدًا لِثَمُودَ[٤]

وفي رده على رجل متفحش من بني تميم يكثر الاستهزاء بمن يمر به، قال أبو الأسود:

وذي إحْنَةٍ لم يُبْدِها غيرَ أنه * كذي الخَبْلِ تأبى نفسُه غيرَ وَسْواسِ
صفحتُ له صفحًا جميلا كصفحه * وعيني –وما يدري–عليه وأحراسي [٥]

فقوله :صفحت له صفحا جميلا مقتبس من قول الله تعالى):**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ**[٦]

وفي قوله:

لا تنْهَ عن خُلُقٍ وتأتيَ مثله * عارٌ عليكَ إذا فعلتَ عظيمُ
ابدأ بنفسكَ وانْهَهَا عن غيِّها * فإذا انتهتْ عنه فأنت حكيمُ [٧]

فالبيتان ينطقان بتأثرهما بالقرآن الكريم ، وبخاصة البيت الأول الذي اعتمد في معناه على قول الله عز وجل :**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا**

---

(١) الأعراف / ١٩٩ .
(٢) ديوانه ص ٣٣٦ .
(٣) هود من الآية ٦٠ .
(٤) هود / ٦٨ .
(٥) ديوانه ص ٤٢٤ .
(٦) الحجر / ٨٥ .
(٧) ديوانه ص ٤٠٤ .

لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ [١]

ولو تأملنا النماذج السابقة لوجدنا أن اللبنات الشعرية التي تألفت منها هذه الأبيات ، والمعاني التي تناولها أبو الأسود قد استقاها الشاعر من البيان القرآني، وهذه من أهم الخصائص الفنية لشعر الحكمة عند أبي الأسود.

وأما عن البيان النبوي فقد اتجه الشاعر صوبه، ينهل من معينه،ويرتشف من رحيقه، ويتنسم أريجه وعبيره،والأمثلة التي تشع بالبيان النبوي في حكم أبي الأسود كثيرة، منها قوله يوصي ولده:

أكرمْ صديقَ أبيكَ حيثُ لقيتَه * واحبُ الكرامةَ مَنْ بدا فحباكها
واكفِ المهمّةَ مَنْ لوَ انَّكَ مرَّةً * نزلتْ إليكَ مهمّةً لكفاكَها
وإذا أتاكَ بنو السبيلِ فأعْطِهِمْ * من فضلِ نعمته التي أعطاكها [٢]

فأبو الأسود في البيت الأول نراه ينهل من معين البيان النبوي، ويعتمد على قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث النبوي الشريف الذي رواه البخاري بسنده عن أسيد بن علي بن عبيد عن أبيه أنه سمع أبا أسيد يحدث القوم،قال:

)كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم، فقال رجل:يا رسول الله هل بقي من بر أبويّ َشيء بعد موتهما أبرهما؟قال:نعم، خصال أربع :الدعاء لهما والاستغفار لهما ،وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التي لا رحم لك قبلها[٣]

وأيضا من النماذج التي يفوح منها عبق الهدي النبوي قوله:

دعانــي أميري كـي أفوهَ بحاجتي * فقلتُ فما ردَّ الجــوابَ وما استمع
فقمتُ ولم أظفرْ بشــيء ولم أصُنْ * كلامي وخيرُ القولِ ما صين أو نفعْ[٤]

ففي قوله ":وخيرُ القول ما صين أو نفعْ "يتكيء على الحديث النبوي الشريف، الذي رواه البخاري في صحيحه)من كان يؤمن بالله واليوم الآخر

---

(١) الصف / الآيتان ٢ – ٣ .
(٢) ديوانه ص ١٧٣ .
(٣) الأدب المفرد للإمام البخارى ج١ ص ٢٧ – الطبعة الثالثة – تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى – دار البشائر الإسلامية – بيروت ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩.
(٤) ديوانه ص ١٤٥ .

فليقل خيرا أو ليصمت [١]

وتأثر أبي الأسود بالبيان القرآني والبيان النبوي –كما أشرت سابق – واضح جلي؛ لأنه من الرعيل الأول الذي تربى على مائدة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف،فكان أمرا بدهيا أن ينعكس هذا التأثر على شعره، وبخاصة شعر الحكمة لديه.

وأما عن تأثر أبي الأسود بمن سبقه من الشعراء الفحول، فنراه قد تأثر بهم في أساليبهم، ومعانيهم، وهذا يعطينا إشارة إلى أن أبا الأسود كان واسع الثقافة، مطلعا على آثار كثير من الشعراء الأوائل، متأثرا ببعضهم، وهذا ما فتح أمام خياله دروبا واسعة للتحليق في سماء الشعر، ومن أمثلة ذلك قوله معاتبا زوجه، حين أساءت عشرتها له:

أفاطمُ مهلًا بعضَ هـذا التعَبَّسِ * وإن كان منكِ الجِدَّ بالصَّرْمِ فايْأسـي
تَشَتَّمُ لـي لمّـا رأتْني أحبُّها * كـذي نعمـةٍ لم يُبْدها غيـرَ أبْؤسِ
وإن تُنْقضـي العهدَ الذي كان بيننا * وتُبْقـي بباقـي ودِّكِ المُتَخَلِّسِ [٢]

فإنـي فلا يَغْرُرْكِ مني تَجَمُّلـي * لأسْلَى الحُبَابَ بالجِنَـبِ المُكَيَّسِ [٣][٤]

فأبو الأسود في البيت الأول متأثر بامرىء القيس في قوله:

أفـاطمُ مهلًا بعضَ هذا التدلُّلِ * وإن كنتِ قد أزْمَعتِ صرْمي فأجْملي [٥]

غير أن أبا الأسود يخالف امرأ القيس، فامرؤ القيس يخاطب حِبَّه بود، ويطلب منها أن تكف عن بعض تدللها عليه، وأن تجمل له إن عزمت على الفراق، فحديثه لها ينم عن حبه لها، أما أبو الأسود فعلى خلاف ذلك، فحديثه يشف عن تبرمه بزوجه بعد أن بدا له منها ذلك الجفاء.

وفي حديثه عن الظلم نراه يسدي نصائحه للمظلوم والظالم معا، فيقول:

إذا كنتَ مظلومـا فلا تـكُ راضيـا * عن القوم حتى تأخذَ النَّصْفَ واغْضَب

---

(١) صحيح البخارى بحاشية السندى ج ٤ ص ٥٤ – دار التراث العربى .
(٢) المتخلس : المستلب .
(٣) أسلى : أنسى ، والحباب : الحبقيب والجناب : المباعدة . والمكيس : من الكيس وهو العقل
(٤) ديوانه ص ١٣١ / ١٣٢ .
(٥) ديوان أمرئ القيس ص ١٢ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، ط الرابعة .

وإن كنتَ أنت الظـالمَ القومَ فاطَّرحْ * مقالتهم واشْغَب بهـم كلَّ مشْغَبِ (١)

فنصيحة أبي الأسود للمظلوم نقبلها منه؛ لأنها تشجع الإنسان على أن يدافع عن حقه، وهذا شيء طيب، أما غير المقبول منه فنصيحته للظالم بأن يلقي كلام القوم وراء ظهره، وأن يضرب به عرض الحائط، وأن يسغب بهم، ويظهر عليهم قوته، ولعل أبا الأسود في بيته الثاني متأثر بقول زهير بن أبي سلمى:

ومن لـم يـذدْ عن حوضه بسلاحه * يُهَدَّمْ ومن لـم يظلم النـَّاسَ يُظْلَمِ (٢)

وإذا جاز لنا –مع التحفظ –أن نتقبل كلام زهير بن أبي سلمى؛ لأنه جاهلي، لم يتشرب الإسلام، ولم يعرف تعاليمه السمحة، فلا يجوز لنا مطلقا أن نتقبله من أبي الأسود ، الذي تشربت نفسه مبادىء الإسلام السمحة، وتعاليمه السامية.

أيضا من أهم خصائص أسلوب أبي الأسود في حكمه قلة استعماله للمحسنات البديعية، فلا نكاد نلمح سوى فن الطباق الذي جاء طبعيا، اقتضاه المعنى، وطلبه السياق، وهذا هو الذي يضفي على الأسلوب روعة وجمالا، يقول الإمام عبدالقاهر الجرجاني":وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيسا مقبولا، ولا سجعا حسنا، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه.....ومن هنا كان أغلى تجنيس تسمعه وأعلاه، وأحقه بالحسن وأولاه :ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه "(٣)

ولعل السر في قلة المحسنات البديعية في حكم أبي الأسود هو أن شعر الحكمة له طبيعة خاصة، فهو يخاطب العقل أكثر من مخاطبته الوجدان، لذا كان طبعيا أن يأتي أسلوبه مباشرا، وخاليا –في أغلب الأحيان _من المحسنات البديعية.

ومن أمثلة الطباق التي جاءت في حكم أبي الأسود، قوله حينما احتاج مرة، فبعث إلى جار له موسر يستسلفه، وكان حسن الظن به، فاعتلَّ عليه وردَّه، فقال:

ولا تُشْعِرَنَّ النفسَ يأسًا فإنَّمـا * يعيشُ بجـدٍّ حـازمٌ وبلـيـدُ

---

(١) ديوانه ص ٤٧ .

(٢) ديوان زهير بن أبى سلمى ص ٨٧ ، دار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

(٣) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجانى ، ج١ ص ١٠٣ ، تحقيق د / محمد عبد المنعم خفاجى ، ط الثالثة ، مكتبة القاهرة ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .

ولا تَطْمَعَنْ في مالِ جارٍ لقربه * فكلُّ قريبٍ لا يُنالُ بعيدُ[1]

فالطباق في قوله "قريب، بعيد "وهذا التقابل بين الألفاظ يساعد في إيضاح المعنى وتأكيده لدى القارىء، فالضد يظهر حسنه الضد ،وقد ورد عفوا من دون تكلف.

ومن النماذج التي أدى الطباق فيها دورا مؤثرا وفاعلا في إظهار المعنى وتجليته، قوله في ابن عمه الذي كان مجاورا له، وسدَّ الباب الذي كان بينهما:

كيفَ بصاحبٍ إنْ أدْنُ منه * يزدْني في مباعدةٍ ذِراعا
وإن أمْدُدْ له في الوصلِ ذرعي * يزدني فوق قيسِ الذرعِ باعا
أبَتْ نفسي له إلا وصالا * وتأبى نفسُه إلا انقطاعا
كلانا جاهدٌ أدنو وينأى * كذلك ماستطعتُ وما استطاعا [2]

فأبو الأسود في هذه الأبيات يرسم صورة جلية لحاله مع ابن عمه الذي كان على خلاف معه، ولقد أدى الطباق في هذه المقطوعة دوره المؤثر في إبراز المعاني التي أرادها أبو الأسود، ويمكن القول بأن المحور الرئيس لهذه المقطوعة قائم على الطباق؛ لأنه أراد أن يبين الخلاف الحاصل بينه وبين ابن عمه فاستخدم فن الطباق الذي جاء طبعيا، وفي موضعه، فأظهر المعنى، وأحدث التأثير، وأثار الشعور والوجدان .

ثانيًا –الصورة الشعرية:

تعد الصورة الشعرية من أهم عناصر العمل الأدبي، الذي يعمل على إثارة العواطف، فبها يستطيع الشاعر أن يربط بين المفردات المختلفة في شكل فني ملموس، وبها –أيضا -يستطيع أن يقرب عمله من المتلقي، بما تحمله الصورة من إشعاعات لربط الأشكال المتباينة في خيط واضح قريب في الذهن.

لذا فالتصوير "أحد الوسائل الفنية المستخدمة في القصيدة، وهو يتكون من مجموعة من العناصر المتباينة،والجزئيات المختلفة التي تتآزر لتخرج في

---

(١) ديوانه ص ٣٣٢ .
(٢) ديوانه ص ٢٩٠ .

النهاية قدرة تعبيرية عن موقف ما[١]

وعن أهمية الصورة في العمل الأدبي، يقول الدكتور محمد غنيمي هلال:

"الصورة الشعرية .....تقوم في الشعر بدور الإقناع والتبرير النفسي[٢]

وكذلك تنحصر وظيفة الصورة الشعرية في كونها الوسيلة الفنية الجوهرية لنقل التجربة الشعرية، وتمثيلها تمثيلا حسيا؛ ذلك لما تشتمل عليه من مختلف الإحساسات والعواطف والأفكار الجزئية [٣]

وشعر الحكمة عند أبي الأسود –كما أشرت سلفا –يخاطب العقل قبل أن يخاطب الوجدان، لذا فهو يميل إلى المباشرة، ويعتمد على الحقيقة أكثر من اعتماده على الصورة و الوجدان.

وليس معنى هذا أن شعر الحكمة عنده كان خاليا من الصورة، أو فقيرا في استخدامها، بل وجد في حكمه ما يتكىء على التشبيه أو الاستعارة أو الكناية.

فمن أمثلة الحكمة التي تعتمد على التشبيه قوله يعاتب صديقا له أفشى له سرا :

أمنتُ على السِّرِّ امرءً غيرَ حازمٍ * ولكنه في النُّصْحِ غيرُ مريبِ

أذاعَ به في الناس حتى كأنه * بعلياءَ نارٌ أوقِدَتْ لثقوبِ

وكنتَ متى لا ترعَ سرَّكَ تنْتَشِرْ * فوارعُه من مخطيءٍ ومصيبِ [٤]

فأبوالأسود في هذه الأبيات يشبه الإنسان الذي يفشي سر صاحبه، ويذيعه في الناس ولا يكتمه بالنار التي توقد على مكان مرتفع، ويطرح عليها الحطب ليرتفع لهبها بجامع الظهور، والانتشار، وعدم الستر، وافتضاح الأمر.

وقد أجاد أبوالأسود في الإتيان بالمشبه به"النار "لما توحي به من دمار وهلاك، فكأن من يأتمن غير الأمين فإنه يعرض نفسه للدمار، وسيرته

---

(١) عناصر الإبداع الفنى فى شعر الأعشى ، لعباس بيومى عجلان ص ٢٤٧ ، دار المعارف ، مطابع جريدة السفير – الإسكندرية .

(٢) مجلة : القاهرة ، عدد ١٩٥٩م ، من مقال عن الصورة فى المذاهب الأدبية . ص ٨٨.

(٣) النقد الأدبى الحديث ، د / محمد غنيمى هلال ص ٤١٧ ، بتصرف – دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة .

(٤) ديوانه ص ٤٥ .

لتلوكها الألسنة.

ويقول في أبيات أخرى:

إذا كنتَ ذا مـالٍ كثيـرٍ فجُدْ به * فإن كريـمَ القـومِ مَنْ هـو باذِلُ
وقومَكَ لا تحملْ عليـهم ولا تكنْ * بهم هارشـًا تغْتابهـم وتقـابلُ
فمـا ينهضُ البازيُّ بغيرِ جناحه * وما تحمـلُ السَّاقيْن إلا الحوامِلُ (١)

ويأتي أبوالأسود في هذه الأبيات بصورة رائعة، بتشبيه ضمني، حيث يبن أن الإنسان لا غنى له عن أهله وقومه؛ فهم له السند والملاذ، ويشبهه بطائر البازي الذي لا يستطيع التحليق من دون
جناحيه، فالإنسان كطائر البازي، وأهله وعشيرته كجناحي الطائر، لا غنى لكل منهما عن الآخر.

وأرى أن أبا الأسود –في البيت الأول –متأثر بقول زهير بن أبي سلمى:

ومَنْ يكُ ذا فضلٍ فيبخل بفضله * علـى قومه يستغن عنه ويُذْمَمِ (٢)

فالشريف العظيم في قومه لا يبخل عليهم بماله، وخاصة في الشدائد والكروب.

والفرق بين بيت أبي الأسود وبيت زهير :أن أبا الأسود حث على الإنفاق على الأهل؛ لأن الكريم هو الذي يبذل من ماله على أهله وقومه، أما زهير فقد نظر إلى الوجهة الأخرى بالتحذير من الآثار المترتبة على بخل الإنسان وتقتيره على قومه وعشيرته، من ذمهم له، واستغنائهم عنه .

ومن حكمه التي تقوم على التشبيه –أيضا –قوله:

حسـدوا الفتـى إذ لم ينالوا سعيَه * فالقـوم أعـداءٌ لـه وخصـومُ
كضرائـرِ الحسنـاءِ قلْنَ لوجهها * حسدًا وبغيًـا إنـه لدميـمُ
والوجه يشرق في الظـلام كأنـه * بـدرٌ منيـرٌ والنسـاءٌ نجـومُ
فاتركْ محـاورةَ السَّفيـهِ فإنهـا * نـدمٌ وعبء بعدَ ذاكَ وخيـمُ (٣)

ففي هذه الأبيات يتحدث أبوالأسود عن داء اجتماعي خطير، وهو داء الحسد، الذي تفشى في المجتمعات، وانتشر فيها انتشار النار في الهشيم، ويعتمد على التشبيه في إظهار هذا المعنى،فنراه

يشبه الحساد الذين يحسدون الإنسان الذي يصل بسعيه وجده إلى ما

---

(١) ديوانه ص ٣٥٦ .
(٢) ديوان زهير بن أبى سلمى ص ٨٧ ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م .
(٣) ديوانه ص ٤٠٣ .

يحلم به ويرجوه، بتلكم النسوة اللاتي امتلأن حسدا وحقدا على المرأة الحسناء، التي حينما يرونها يشعرن في قرارة أنفسهن بالبون الشاسع بينها وبينهن من جمال حباها الله به، فتمتلىء صدورهن حقدا وحسدا تجاه هذه المرأة الحسناء، ويرون كل شيىء فيها قبيحا.

ولقد أجاد أبوالأسود في قوله:

كضرائـرِ الحسنـاءِ قلْنَ لوجهها * حسدًا وبغيًـا إنـه لدميـمُ

حيث استخدم لفظ"ضرائر "بالجمع التي توحي بكثرة هؤلاء النسوة اللاتي أكل الحسد والغيظ قلوبهن، وفي هذا دلالة على الجمال الصارخ الذي تتمتع به هذه المرأة المحسودة.

واستخدامه للوجه خاصة؛ لأنه مرآة الجسم، ولأنه أكثر أعضاء الجسم الذي يظهر الجمال فيه.

أيضا فصله بين القول ومقول القول بقوله ":حسدا وبغيا "ليدل على كذب النسوة، وأن اتهامهن لها إنما هو من قبيل الغيرة التي –دائما –تكون بين النساء.

ومن حكمه التي قامت على التشبيه قوله يصف الإمام عليا بن أبي طالب:

إذا استقبلتَ وجـه أبـي حسين * رأيتَ البدرَ راقَ النـاظريـنـا
لقد علمت قريشُ حيث كانت * بأنكَ خيرُهم حسبًا ودينا (١)

حيث شبه وجه الإمام علي بالبدر في بهائه ونضارته وجذب الأنظار إليه مع الرغبة الملحة في الحرص الشديد على النظر إليه والتمتع بذلك، ويوضح هذا المعنى قوله في نهاية البيت الأول" :راق الناظرينا."

ومن حكمه التي اعتمدت على الاستعارة قوله :

وصاحبِ صدقٍ ذي حياءٍ وجرأةٍ * ينالُ الصديقَ نصرُه وفواضلُه
كريمٍ حليمٍ يكسبُ الحمدَ والندى * إذا الورعُ (٢)الهيَّابُ قلّتْ نوافلُه
مددْتُ بحبلِ الودِّ بينـي وبينـه * كلانا مُجِدٌّ ما يليه وواصلُه (٣)

ففي قوله ":مددْتُ بحبلِ الودِّ "استعارة مكنية، حيث شبه الود وهو أمر معنوي بشيء حسي، ثم حذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه

---

(١) ديوانه ص ١٥٢ .
(٢) الورع : الصغير الضعيف الذى لا غناء عنده.
(٣) ديوانه ص ٥٧ .

وهو "الحبل "وأفادت هذه الاستعارة التجسيد الموحي بأنه بذل كل ما في وسعه وأكثر منه في سبيل التواصل معه .

ومن حكمه التي ارتكز فيها على الكناية قوله يصف رجلا متفحشا يكثر الاستهزاء بالناس:

وخَبٍّ لحومُ الناسِ أكثرُ زادِه * كثيرُ الخنى بعد المحالة همَّاسِ

تركتُ له لحمي وأبقيتُ لحمَه * لمن نابَه من حاضرِ الجنِّ والناسِ [١]

فأبو الأسود يكني عن أعراض الناس بلحومهم، وأراه متأثرا في هذه الصورة بقول الله تعالى **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ**[٢]

وسر جمال هذه الصورة ينبع من بشاعتها، وأيضا استخدام الشاعر لهذه الألفاظ وما فيها من إيحاء "خب -لحوم -الخنى -همَّاس "يساعد على توضيح هذه الصورة، مما يؤدي إلى التنفير منها، وكذلك استخدام الشاعر للفظة "لحوم "بالجمع لتدل على الكثرة، وأنه لا يستثني أحدا، فكل الناس عنده تنالهم منه سهام الغيبة والنميمة،وقوله":كثير الخنى "يدل على أن هذه الصفة أصبحت ملازمة له .

ومن أبياته التي تنطق الكناية فيها قوله عن بني زياد:

هُمُ جدعوا الأنوفَ وكنَّ شُمًّا * بقتلهمُ الكريمَ أخا مرادِ [٣]

فقوله ":جدعوا الأنوف "كناية عن الذل والمهانة، وخص الأنوف دون غيرها لأنها مناط العزة والكرامة لدى العرب، ومما زاد في جمال هذه الكناية وعضدها قوله":وكن شما "الذي يدل على أن هذه الأنوف دائما كانت في عز ومنعة، لكنها جدعت وكسرت على أيدي بني زياد .

ومن صوره المركبة الجيدة التي تعانقت فيها الكناية مع الاستعارة قوله عن الحاسد:

وعندي له إن ثارَ فوَّارُ صدره * فحًا جَبَلِيٌّ لا يعود له الحاسي[٤]

---

(١) ديوانه ص ٤١ .
(٢) الحجرات / ١٢
(٣) ديوانه ص ٣٣٦ .
(٤) الفحا : الأبزار ؛ الفلفل وما اشبهه

تَنَقَّيْتُه من كلِّ مُرٍّ فمِزْتُه * لكلِّ عُضَالِيٍّ من الدَّاءِ نَكَّاسِ (١) (٢)

حيث شبه تحرُّكَ ما في صدره من غل وحقد وحسد بالثورة التي لا تهدأ، ولا يمكن السيطرة عليها، وذلك على سبيل الاستعارة التصريحية في قوله":ثار "ومما يقوي هذه الصورة ويوضحها

قوله":فوَّار "على صيغة "فعَّال "التي تدل على المبالغة، والتي ترسم بحروفها ونطقها حالة الحركة و الغليان التي في صدر الحاسد.

وأيضا في قوله":إن ثار فوار صدره "كناية تصويرية عن الحقد والحسد، واكتسبت هذا التصوير من تعانقها مع الاستعارة التصريحية في قوله":ثار."

وأبو الأسود في صوره أراه مطبوعا، لا يجهد نفسه، ولا يكد خاطره في استخراج الصور، وإنما يقول ما يجود به خياله من دون تكلف، وهذا من أهم خصائص الصورة عنده.

ثالثًا –الموسيقى الشعرية:

يعد البناء الموسيقي من أقوى عناصر التأثير في النص الشعري، وأحد الأعمدة الرئيسة التي يقوم عليها "فلا يوجد شعر بدون موسيقى يتجلى فيها جوهره، وجوه الزاخر بالنغم، موسيقى تؤثر في أعصاب السامعين ومشاعرهم بقواها الخفية التي تشبه قوى السحر، قوى تنشر في نفوسهم موجات من الانفعال، يحسون بتناغمهم معها .....وهو إحساس دقيق بأن الموسيقى لب الشعر وعماده الذي لا تقوم له قائمة بدونه (٣)

ولأن الموسيقى تؤثر في الوجدان، وتحرك المشاعر فقد "يستغني الشاعر عن الخيال في بعض أجزاء قصيدته، ولكنه لا يستغني عن الموسيقى؛ فالإيقاع الموسيقي إذن هو جوهر الشعر "(٤)

وحينما نتأمل موسيقى أبي الأسود الدؤلي نجد أنه قد عني بها عناية

---

(١) مزته : انتقيت بعضه من بعض ، يقال : مز هذا من هذا أى انتقه وتخيره ، والعضالى : الشديد . والنكاس : الذى ينتكس فيه صاحبه مرة بعد مرة .

(٢) ديوانه ص ٤٠ .

(٣) فصول فى الشعر ونقده ، د/ شوقى ضيف ص ٢٨ / ٢٩، ط الثانية ، دار المعارف .

(٤) شعر الأسر والسجن فى الأندلس ، جمع وتحقيق ودراسة / بسيم عبد العظيم ص ١٩٠ ، ط الثانية ١٩٩٦ ، مكتبة الخانجى القاهرة .

فائقة، فقد حرص على التنوع الموسيقي وزنا وقافية، فلا فوضى فيها ولا اضطراب، وذلك راجع إلى أن أبا الأسود محب للتراث العربي، محافظ على قيمه وتقاليده الموروثة، فلم يخرج على هذه التقاليد، وتلك الأصول الفنية التي التزمها الشعراء في عصره .

وحديثنا عن الموسيقى في شعر الحكمة عند أبي الأسود سيكون من خلال مظهرين:

المظهر الأول :الموسيقى الخارجية، وتتمثل في الوزن والقافية.

المظهر الثاني :الموسيقى الداخلية، وتتمثل في إيقاع الكلمات والأساليب.

أما عن الموسيقى الخارجية فأبوالأسود نراه قد نظم قصائده على سبعة بحور شعرية هي " :الطويل، الوافر، الكامل، المتقارب، البسيط، الخفيف، الكامل المجزوء "[١]

وكان موفقا في اختيار البحور التي تتوافق مع المعاني التي تدور في رأسه، وبالنظر في البحور الشعرية التي نظم أبوالأسود على موسيقاها نجد شيئا لافتا للنظر، وهو هيمنة بحر الطويل على شعره عامة، وشعر الحكمة خاصة، ولعل السر في ذلك يرجع إلى أن بحر الطويل ومعه بحر البسيط " يعدان بحري الجزالة والفخامة، فيغلب علي المنظوم منهما الرصانة، والمتانة، وشدة الأسر، وروعة السرد، وصلابة الحوك، ولذلك يحتاجان إلى ثقافة لغوية ضخمة، وثروة من الأخيلة والمعاني [٢]

وأيضا بحر الطويل "يتسع لكثير من المعاني، فيصلح للأغراض الشعرية كافة....وقد كان له في عصور الفحولة والقوة القدح المعلى بين البحور في كثرة النظم على موسيقاه، وقد جاء ما يقرب من ثلث الشعر العربي القديم على هذا البحر[٣]

ومن حكمه التي جاءت على بحر الطويل قوله يحث على تحمل الأمانة وحفظها:

إذا أنْتَ حُمِّلْتَ الأمـانةَ فارْعَهـا * وكـونَنَّ قَفْـلا لا يرومُـكَ فاتـحُ

---

(١) جاء بحر الطويل فى ست وستين مطوعة وقصيدة ، والوافر فى سبع قصائد ومقطوعات ، والكامل فى أربع قصائد ومقطوعات ، لمتقارب فى أربع قصائد ومقطوعات ، والبسيط فى ثلاث قصائد ومقطوعات ، والخفيف فى مقطوعة واحدة ، والكامل المجزوء فى مقطوعة واحدة

(٢) الشعراء وإنشاد الشعر ، د /على الجندى ص ١٠٢ ط دار المعارف ١٩٦٢م.

(٣) المرجع السابق ، الصفحةنفسها – بتصريف

فإن لسانَ المرءِ ما لم يكن له * فؤادٌ بما يخفى على الناس بائحُ [١]

ونظم على بحر الوافر من المعاني ما يحتاج إلى جهد ومشقة، وجد واجتهاد، وسعي في الحياة، يقول حاثًا على العمل وطلب الرزق:

وما طلبُ المعيشةِ بالتَّمَنِّي * ولكنْ ألقِ دلوَكَ في الدِّلاءِ
تجِئْكَ بملئِها يوما، ويوما * تجيء بجَمْأةٍ وقليلِ ماءِ
ولا تقعدْ على كسلِ التَّمَنِّي * تحيلُ على المقادرِ والقضاءِ
فإنَّ مقادرَ الرحمنِ تجري * بأرزاقِ الرجالِ من السَّماءِ
مقدَّرةً بقبضٍ أو ببسطٍ * وعجزُ المرءِ أسبابُ البلاءِ [٢]

ونظم على بحر الكامل فعبر فيه عن تجاربه المتنوعة، وتأملاته في الحياة، يقول:

وبلوتُ أخلاقَ الرجالِ وفعلَهم * فشَبِعْتُ علمًا منهمُ وتجاربا

فأخذتُ منها ما رضيتُ بأخذه * وتركتُ أكثرَ ما هنالكَ جانبا[٣]

ثم يأتي بحر المتقارب بما له من جرس موسيقي أخاذ، ونغمة مطربة، فينظم عليه بعضا من حكمه من مثل قوله يتحدث عن صديق له:

لنا صاحبٌ لا كليلُ اللسان * فيصْمتُ عنَّا ولا صارمُ
وشرَّ الرجالِ على أهله * وأصحابه الحَمِقُ العارمُ[٤]

ثم يأتي بحر البسيط، وينظم عليه من المعاني ما تحتاج إلى إعمال عقل، وكد ذهن، وطول نظر، من مثل قوله:

كلَّ امرىءٍ صائرٌ يومًا لشيمته * في كلِّ منزلةٍ يُبْلى بها الرجلُ
ولو تلبَّثَ عنها غيرَ تاركها * إلا إليها قريبًا ثم ينتقِلُ
إذا أرادَ لها تركًا تَقَعَّدَه * كما تقعَّدَ ساقَ الموثق الطَّوَلُ[٥]

ثم يأتي بحر الخفيف على استحياء، وينظم عليه قصيدة واحدة، جعلها كلها في النصح والإرشاد، منها قوله:

حقِّق القولَ إذا ما قلْتَه * واحْذَرَنْ مخْزاتَه في المجْمعه

---

(١) ديوانه ص ١٨١ .
(٢) ديوانه ص ٣٠٤ .
(٣) ديوانه ص ٥٢ .
(٤) العارم : الذى يأتى كل شئ من جهله .
(٥) ديوانه ص ٦١ ، والطول : الحبل الطويل .

لا يكـنْ برْقُـكَ بـرقًا خُلَّبًـا * إن خيـرَ البرق مـا الغيثُ معه
أطِلِ الصَّمْتَ إذا مـا لـم تُسَلْ * إن فـي الصَّمْتِ لأقـوامٍ دَعَه[1]

وأما عن القافية:

فلا يخفى ما لها من قيمة موسيقية في القصيدة "وتكرارها يزيد من وحدة النغم، وهي في الشعر العربي ذات سلطان يفوق ما لنظائـرها في اللغات الأخرى[2].

وأبوالأسود نراه اهتم بها اهتماما كبيرا، وحاول توظيفها لخدمة معانيه وصوره، وقد تنوعت بين القوافي المقيدة، والقوافي المطلقة.

ومن أمثلة القوافي المقيدة قوله في صديق له خذله، ولم يمد له يد العون:

دعانـي أميري كـي أفوهَ بحاجتي * فقلتُ فما ردَّ الجـوابَ وما استمعْ
فقمتُ ولم أظفرْ بشـيء ولم أصُنْ * كلامـي وخيرُ القولِ ما صين أو نفعْ
فأجْمَعْتُ يأسِـا لا لُبـانة بعده * وَلَلْيَـأسُ أدنـى للعفافِ من الطَّمَعْ[3]

فحرف الروي في الأبيات "العين الساكنة "، ومعلوم أن حرف العين من الحروف التي تخرج من أعماق الحلق، وتعبر عن الوجع والألم والأنين، وهي -أيضا -من الحروف المجهورة القوية، وجعلها ساكنة أسهمت بطبيعتها الصوتية المجهورة في تصوير قوة الوجع والألم النفسي الذي أحسَّ به أبوالأسود بعد خذلان صديقه له، وكأن حرف الروي يجسد الحالة النفسية للشاعر، ومما يقوي هذا الكلام تكرار الشاعر لحرف العين في هذه الأبيات سبع مرات.

ومن أمثلة القوافي المطلقة قوله مدافعا عن نفسه بعد أن أصابه كلام خبيث لجيران له يتهمونه بشرب الخمر :

لسـتُ وإنْ عزَّ الشرابُ بمفطرٍ	*	**علـى باذقٍ ممـا تقـوم بـه السوقُ**
سأتركُ ما أخشـى علـيَّ أذاتَه	*	**وأشربُ ممّـَا تجمـعُ النَّحلُ والنَّوقُ**
شَرابَيْنِ لا مقْتٌ مـن الله فيهمـا	*	**علـيَّ ولا وقعٌ مـن السَّوطِ تشْقيقُ[4]**

---

(١) ديوانه ص ٨٣ .
(٢) النقد الأدبى الحديث ، د / محمد غنيمى هلال ص ٤٤٢ ، ط دار نهضة مصر .
(٣) ديوانه ص ١٤٥ .
(٤) ديوانه ص ٦٨ .

فحرف الروي في هذه الأبيات "القاف المضمومة - "والتي كررها الشاعر ثماني مرات -ومعلوم أن حرف القاف من الحروف المجهورة، وأيضا من الحروف القوية الانفجارية التي لا تسمح بمرور الهواء في حالة النطق بها، وصفات هذا الحرف أراه مناسبا مع المعنى الذي أراده أبوالأسود وهو تحريم الخمر على نفسه، والتحريم فيه قوة، وشدة، ومنع، فناسب ذلك أن يأتي بالقاف لتكون رويا، ولتوحي بهذه المعاني.

المظهر الآخر :الموسيقى الداخلية:

إذا كان أبو الأسود قد عُني بموسيقاه الخارجية، فلم يخرج على الأوزان المعروفة، والأصول الفنية التي التزمها الشعراء الأوائل،فإنه – أيضا –عُني بموسيقاه الداخلية التي "تنبع من اختيار الشاعر لكلماته، وما بينها من تلاؤم في الحروف والحركات، وكأن للشاعر أذنا داخلية وراء أذنه الظاهرة تسمع كل شكلة وكل حرف وكل حركة بوضوح تام، وبهذه الموسيقى يتفاضل الشعراء "[١]

ومن الموسيقى الداخلية نوع خفي لا نستطيع أن ندركه في سهولة ويسر، ولكن نستشعر أثره فيما يشيع في النص من جو يلائم حالة الشاعر النفسية، ويتواءم مع تجربته .

ومن النماذج الجيدة التي تنطق فيها الموسيقى الداخلية، قوله

إذا ضاق صدر المرءِ عن سرِّ نفسه * ففاضَ ففي صـــدري لسرِّيَ متَّسعْ
إذا فات شـــيء فاصطبر لذهابه * ولا تتْبَعَنَّ الشـــيْءَ إن فاتك الجزعْ
ففي اليأس عمَّا فـات عزٌّ وراحة * وفيه الغنى والفقر يا ضافـي الطَّمعْ
إذا صاحبا وصـــلٍ بحبلٍ تجاذبا * فملَّ قـــواه أوهِنَ الحبلُ فانقطعْ
ولا تحْفرَنْ بئْرًا تريد أخـــًا بها * فإنك فيـــها أنت مـــن دونه تقعْ
وكل امرىء يبغي على الناس ظالما * تُصِبْه على رغمٍ عواقبُ مَنْ صنعْ [٢]

فإننا نلحظ أن الموسيقى الداخلية في هذه الأبيات تشنف الآذان، وذلك من خلال طبيعة الألفاظ التي استخدمها أبو الأسود، وما بينها من تجانس من مثل "صدر، سر، نفس "و "الجزع، اليأس، الطمع "و "العز، الراحة "و " الغنى، الفقلر "و"الحفر، البئر. "

---

(١) فى النقد الأدبى ، د / شوقى ضيف ، ص ٩٧ ، ط السادسة ، دار المعارف ١٩٨١م .
(٢) ديوانه ص ٣٤٦ .

كذلك أدت الأفعال "ضاق -فاض -فات "دورها في توضيح الصورة، وأيضا أضفت جرسا موسيقيا خلابا على الأبيات بما فيها من المدود التي تسمح بإخراج أكبر قدر من زفرات الألم والحسرة.

كذلك تتبع الموسيقى الداخلية في هذه الأبيات من الطباق الذي اعتمد عليه الشاعر في توضيح المعنى من مثل قوله "ضاق -متسع "و"الغنى – الفقر. "

ويأتي حرف الروي "العين الساكنة "لتؤدي دورا بالغا في بلورة الموسيقى الداخلية لهذه المقطوعة، فالعين –كما أشرت سابقا –من الحروف القوية التي تخرج من أعماق الحلق، وكأن أبا الأسود يريد أن يقول :إن السر لابد وأن يكون داخل أعماق الإنسان، فلا يخرج لأحد أبدا مهما كان، فأتى بحرف الروي، وهو "العين "التي تخرج من أعماق الحلق ليناسب ذلك المعنى الذي أراده .

وأيضا استخدام الشاعر إذا الشرطية التي تفيد التحقق بدلا من "إن " الشرطية التي تفيد الشك لتيقنه من أنه لا يخلو إنسان من ضيق الصدر وتوابعه .

ومن النماذج التي برزت فيها الموسيقى الداخلية بوضوح، قوله يبين قيمة العقل :

إذا لـم يكن للمرء عقـل فإنـه * -وإن كان ذا مالٍ -على الناس هيِّنُ
وإن كـان ذا عقلٍ أجِـلَّ لعقله * وأفضـلُ عقلً عقلُ مَنْ يتديَّنُ (١)

فهذان البيتان يبين الشاعر فيهما طائفة من الأفكار القيمة، التي تكتسب سموا ورقيا بما توافر لها من القوة والصدق، وما اتسمت به من الجودة في التعبير من حيث اختيار الألفاظ، وصفاء العبارة، وامتزاجها بوجدان الشاعر وعواطفه فصارت من قبيل الحكم الخالدة .

ومن مظاهر الموسيقى الداخلية في البيتين إكثار الشاعر من استخدامه لحرف القاف، حيث استخدمه خمس مرات، وهو من الحروف المجهورة، التي يهتز معها الوتران الصوتيان عند النطق بها، وأيضا من الحروف القوية الانفجارية التي لا تسمح بمرور الهواء حال انطق بها، ليتناسب ذلك مع مراد الشاعر في أن العقل هو مصدر القوة عند المرء.

---

(١) ديوانه ص ٣٧٣ .

ويظهر هذا جليا في استخدام الشاعر حرف النون المضموم وجعله رويا، ومن المعلوم أن حرف النون من الحروف المجهورة، ويخرج من طرف اللسان مع ثنايا الحنك الأعلى، وكأني بالشاعر يريد أن يربط بين علو الإنسان بعقله، وبين حرف النون الذي يخرج من طرف اللسان مع ثنايا الحنك الأعلى، فحدث ترابط وتجانس وانسجام بين حرف الروي وبين المعنى الذي أراده الشاعر

ومن جمال هذين البيتين استخدام الشاعر للجملة الاعتراضية "وإن كان ذا مالٍ "والفصل بها بين اسم إن وخبرها، لتدل على أن ما سوى العقل – مهما بلغ شأنه –لا يحقق مكانة للفرد عند الناس كما يحققها العقل الرشيد، والرأي السديد .

وأيضا تنكيره وتنوينه لكلمة "عقل "للتعظيم معنى وجرسا أكسب البيت موسيقى خلابة، كما أن استخدامه "إن "التي تفيد الشك أداة للشرط راجع إلى اعتقاده أنه لا يصل إلى درجة الكمال والرجحان والقوة في العقل إلا النفر القليل .

الخاتمة

بعد هذه السياحة في شعر الحكمة عند أبي الأسود الدؤلي نخلص إلى أهم النتائج التي أسفر عنها البحث، ومنها:

– 1أظهر هذا البحث جانبا من جوانب شخصية أبي الأسود التي لم تأخذ حقها من البحث والدراسة وهي الشخصية الأدبية .

– 2غلبة شعر المقطوعات على نتاج أبي الأسود،وهيمنة شعر الحكمة على بقية الأغراض .

– 3استقى أبوالأسود حكمته من معين لا ينضب، متمثلا في القرآن الكريم،والحديث النبوي الشريف،بالإضافة إلى تجاربه وخبراته في الحياة، وثقافته والتي من أهمها قراءته لكثير من الشعراء الأوائل وتأثره بهم .

– 4تنوعت موضوعات شعر الحكمة عند أبي الأسود ، ما بين النصح والإرشاد، والحث على السعي وطلب الرزق، وفضل العلم،والدعوة إلى حسن الخلق،، وغيرها كثير .

– 5جاءت ألفاظ أبي الأسود -في أغلبها –سهلة عذبة رقيقة، مناسبة للمعاني الشعرية،كما جاءت –أحيانا –موحية ، مستقاة من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف .

– 6جاءت معاني أبي الأسود واضحة، ، مباشرة، قريبة المأخذ،بعيدة عن التناقض والتعقيد .

– 7جاءت الصورة قليلة في شعر الحكمة عند أبي الأسود، لكنها كانت معبرة عن عاطفته ومعانيه.

– 8كان أبوالأسود مطبوعا في صوره، فلم يجهد نفسه، ولم يرهق خياله في استخراج الصور، وإنما يقول ما يجود به خياله من دون تكلف .

- 9كان أبوالأسود محبا للتراث العربي،محافظا على قيمه وتقاليده الموروثة،فلم يخرج على هذه التقاليد، والتي منها المحافظة على وحدة الوزن ووحدة القافية .

– 10أظهر البحث أن بحر الطويل هو البحر الذي يؤثره أبو الأسود على غيره من البحور؛ ولعل السبب في ذلك يرجع إلى ما يتسم به البحر الطويل من الرحابة والاتساع لكثير من المعاني ، وهذا يتناسب مع شعر الحكمة .

– 11عنايته الفائقة بالموسيقى الداخلية، التي تنبع من اختياره لكلماته، وما

بينها من تلاؤم في الحروف والحركات .
– 12جاء شعر الحكمة عند أبي الأسود طبعيا خاليا من المحسنات البديعية ما عدا فن الطباق؛ ولعل السبب في ذلك هو أن شعر الحكمة يخاطب العقل قبل أن يخاطب الوجدان، لذا لم تكثر فيه المحسنات البديعية .
– 13يمثل شعر أبي الأسود العصر الإسلامي خير تمثيل،لغة سليمة، لم يشبها دخيل أو معرب، وتراكيب فصيحة صالحة للاستشهاد بها في كتب اللغة والنحو .
– 14كثير من حكم أبي الأسود –لقيمتها وقوتها –تسير مسرى المثل، فتنشدها الأجيال، ويستشهد بها الخطباء والأدباء للتدليل على صحة أقوالهم ، من مثل قوله:

لا تنْـهَ عن خُلُقٍ وتأتـيَ مثـله * عـارٌ عليـكَ إذا فـعلـتَ عظيـمُ

وبعد:

فأرجو أن أكون –بهذا المجهود المتواضع –قد وفيت الموضوع حقه من البحث والدراسة، وأن يكون عملي هذا مما ينتفع به، والله تعالى من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل .

قائمة المصادر والمراجع

أولا -القرآن الكريم.

ثانيًا –المصادر:

- ديوان أبي الأسود الدؤلي،صنعة أبي سعيد الحسن السكري،تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين ،الطبعة الثانية المنقحة والمصححة1418هـ/منشورات دار ومكتبة الهلال.

ثالثًا –المراجع :

–1الأدب المفرد للإمام البخاري -الطبعة الثالثة-تحقيق محمد فؤاد عبدا لباقي -دار البشائر الإسلامية-بيروت 1409هـ1989/م

-2أسرار البلاغة.للإمام عبدالقاهر الجرجاني، ، تحقيق د /محمد عبدالمنعم خفاجي،ط الثالثة، مكتبة القاهرة 1399هـ1979/م

-3الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، ،تحقيق ابن حسن الفيومي -دار الكتب العلمية –المطبعة الشرقية –القاهرة 1327هـ .

-4الأعلام لخير الدين الزر كلي ، –الطبعة الخامسة عشرة، 2002م،دار العلم للملايين ،بيروت .

–5البيان والتبيين للجاحظ، ، تحقيق عبد السلام هارون،مكتبة الخانجي بمصر

-6الجمع بين الصحيحين -البخاري ومسلم -لمحمد بن فتوح الحميدي –، تحقيق علي حسين البواب –دار ابن حزم،بيروت 1423هـ2000/م

-7ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي،تحقيق محمد عبده عزام، -دار المعارف

–8ديوان الإمام الشافعي ،اعتنى به عبدالرحمن المصطاوي الطبعة الثالثة،1426هـ2005/م،دار المعرفة،بيروت لبنان.

–9ديوان امرىء القيس،تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ،الطبعة الرابعة - دار المعارف

–10ديوان الحطيئة،شرح أبي سعيد السكري ص17، دار صادر بيروت1401هـ1981/م

-11ديوان زهير بن أبي سلمى ، دار بيروت للطباعة والنشر،1402هـ1982/م

-12سنن الترمذي –دار إحياء التراث العربي
-13السنن الكبرى للبيهقي، ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، مكتبة دار الباز ، مكة المكرمة 1414هـ1994/م
-14شعر الأسر والسجن في الأندلس، جمع وتحقيق ودراسة د /بسيم عبدالعظيم،ط الثانية، 1996م،مكتبة الخانجي بالقاهرة.
-15الشعراء وإنشاد الشعر، د /علي الجندي ط دار المعارف 1962م.
-16الشعر والشعراء لابن قتيبة، ،تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر،الطبعة الثانية،1418هـ1998/م،
–17الشوقيات ، الطبعة الأولى -دار الكتاب العربي بيروت .ط مطبعة مصر
-18صحيح البخاري ، ،تحقيق/مصطفى ديب البغا،دار ابن كثير اليمامة،بيروت 1407هـ1987/م
–19صحيح البخاري بحاشية السندي –دار التراث العربي
-20طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي، ،تحقيق محمود محمد شاكر، الناشر :دار المدني بجدة .
-21عناصر الإبداع الفني في شعر الأعشى، لعباس بيومي عجلان،،دار المعارف،مطابع جريدة السفير -الاسكندرية
-22فصول في الشعر ونقده،د/شوقي ضيف ، ط الثانية، دار المعارف.
-23في الأدب الحديث لعمر الدسوقي، –الطبعة الثالثة -دار الفكر العربي – مطبعة الرسالة.
-24في ميزان النقد الأدبي،د/طه أبو كريشة ، الطبعة الأولى 1976م.
-25القاموس المحيط للفيروز آبادي ،ط السادسة1419هـ1998/م،مؤسسة الرسالة للطباعة
-26لسان العرب لابن منظور ج2ص 951دار المعارف.
-27مجلة المجلة :القاهرة،عدد يوليو 1959م .
-28المعجم الأوسط للإمام الطبراني، ،تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد ،طبعة دار الحرمين -القاهرة 1415هـ
-29النقد الأدبي الحديث،د /محمد غنيمي هلال –دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة.

-30النقد الأدبي في مذاهبه وقضاياه، د/عبدالفتاح علي عفيفي، –ط 1987م
.
-31النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير، ،الطبعة الأولى،المكتبة العصرية.
–32نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب،شرح الإمام الشيخ محمد عبده،
-33وفيات الأعيان لابن خلكان، ، تحقيق د/إحسان عباس ،ط دار صادر بيروت 1398هـ1978/م